بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الحجر (١)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله تعالى- في تفسيره:

تفسير سورة الحجر. وهي مكية.

بِسْمِ اللّهِ الرّحْمَنِ الرّحِيمِ

{الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مّبِينٍ * رُبَمَا يَوَدّ الّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ * ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتّعُواْ وَيُلْهِهِمُ الأمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ} [سورة الحجر:١-٣].

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور، وقوله تعالى: {رُبَمَا يَوَدّ الّذِينَ كَفَرُواْ} الآية، إخبار عنهم أنهم سيندمون على ما كانوا فيه من الكفر، ويتمنون لو كانوا في الدنيا مسلمين، وقال سفيان الثوري عن سلمة بن كهيل، عن أبي الزعراء، عن عبد الله -رضي الله تعالى عنه- في قوله: {رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ} قال: هذا في الجهنميين إذا رأوهم يخرجون من النار، وروى ابن جرير أن ابن عباس وأنس بن مالك -رضي الله تعالى عنهم- كانا يتأولان هذه الآية {رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ} يتأولانها: يوم يحبس الله أهل الخطايا من المسلمين مع المشركين في النار، قال: فيقول لهم المشركون: ما أغنى عنكم ما كنتم تعبدون في الدنيا، قال: فيغضب الله لهم بفضل رحمته فيخرجهم، فذلك حين يقول: {رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ}.

وقوله: {ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا} تهديد شديد لهم ووعيد أكيد، كقوله تعالى: {قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ} [سورة إبراهيم:٣٠]. وقوله: {كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلاً إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ} [سورة المرسلات:٤٦]؛ ولهذا قال: {وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ} أي: عن التوبة والإنابة، {فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ} أي: عاقبة أمرهم.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ}، ثم ذكر القرآن بعده {وَقُرْآنٍ مّبِينٍ}، بعض أهل العلم فسر الكتاب بجنس الكتب المتقدمة التي أنزلها الله -عز وجل- كالتوراة والإنجيل وغيرها، قالوا ذلك من أجل أن لا يكون تكراراً مع ذكر القرآن، وقيل: {تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ} المقصود هذه السورة، وقيل: إن المراد {آيَاتُ الْكِتَابِ} آيات هذا القرآن، قال: {وَقُرْآنٍ مّبِينٍ} فالله -تبارك وتعالى- تنويهاً بشأنه وإعظاماً لذكره ذكر هذا وهذا من صفته، فإن أسماء القرآن -كما يقال في أسماء الله -عزوجل- أسماء وأوصاف، فكل اسم يدل على صفة، فالكتاب هو المكتوب، والقرآن هو المقروء، الذي جمع الله -عزوجل- فيه الهدى من التوحيد والأخبار والقصص والأحكام والآداب وما إلى ذلك، والأقرب -والله تعالى أعلم- أن الكتاب والقرآن كله شيء واحد، وهو هذا القرآن الذي أنزله الله على محمد -صلى الله عليه وسلم-، {تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مّبِينٍ}، ثم قال:

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

{رُبَمَا يَوَدّ الّذِينَ كَفَرُواْ}، "رُبَما" قرأ نافع وعاصم بالتخفيف، وقرأ الجمهور بالتشديد "ربَّما"، والقراءة الأولى هي لغة أهل الحجاز، والقراءة الثانية هي لغة تميم ومن وافقهم، والمعنى في القراءتين واحد، وهذه اللفظة تأتي للتقليل، تقول: ربما يجود البخيل، وقد تأتي للتكثير؛ لذا فإن المفسرين منهم من حمل ذلك على التكثير، {رُبَمَا يَوَدّ الّذِينَ كَفَرُواْ} أي: يكثر منهم ذلك، ومن حمله على التقليل خصّه بموطن معين، والذي يظهر - والله تعالى أعلم- أن الآية تحمل على الجميع، فمن السلف من قال: إن ذلك حينما قتلوا في يوم بدر، ولا شك أنهم أدركوا وعرفوا وعاينوا من الحقائق ما عرفوا به حقيقة ما جاء به رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وقد خطبهم فقال: ((هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقاً))[1]، فالكافر يندم عند المعاينة، إذا خرجت روحه، وكذلك أيضاً يندم إذا جاءه الملكان في القبر، كما يندم عند البعث والحساب، فهو في القبر يقول: ((رب لا تقم الساعة، رب لا تقم الساعة))[2]، والله -عز وجل- يقول: {قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ}[سورة الممتحنة:١٣]، فإن أحد المعنيين المشهورين في تفسير هذه الآية يعني: كما يئس الكفار الذين قبروا من رحمة الله -عز وجل-، وقوله: {ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتّعُواْ وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ}، الأمر يأتي لعدة معانٍ، وهذا الموضع هو للتهديد والوعيد كمن يقول مثلاً: افعل ما شئت فستجد جزاءك، وهكذا، والله أعلم.

{وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلاّ وَلَهَا كِتَابٌ مّعْلُومٌ * مّا تَسْبِقُ مِنْ أُمّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ}[سورة الحجر:٤-٥].

يخبر تعالى أنه ما أهلك قرية إلا بعد قيام الحجة عليها وانتهاء أجلها، وأنه لا يؤخر أمة حان هلاكهم عن ميقاتهم ولا يتقدمون عن مدتهم، وهذا تنبيه لأهل مكة وإرشاد لهم إلى الإقلاع عما هم عليه من الشرك والعناد والإلحاد الذي يستحقون به الهلاك.

{وَقَالُواْ يَآأَيّهَا الّذِي نُزّلَ عَلَيْهِ الذّكْرُ إِنّكَ لَمَجْنُونٌ * لّوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلاَئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصّادِقِينَ * مَا نُنَزّلُ الْمَلاَئِكَةَ إِلاّ بِالحَقّ وَمَا كَانُواْ إِذاً مّنظَرِينَ * إِنّا نَحْنُ نَزّلْنَا الذّكْرَ وَإِنّا لَهُ لَحَافِظُونَ}[سورة الحجر:٦-٩].

يخبر تعالى عن كفرهم وعنادهم في قولهم: {يَآأَيّهَا الّذِي نُزّلَ عَلَيْهِ الذّكْرُ} أي: الذي تدعي ذلك، {إِنّكَ لَمَجْنُونٌ} أي: في دعائك إيانا إلى اتباعك وترك ما وجدنا عليه آباءنا.

قوله: {وَقَالُواْ يَآأَيّهَا الّذِي نُزّلَ عَلَيْهِ الذّكْرُ إِنّكَ لَمَجْنُونٌ}، قيل: هم لا يؤمنون أن النبي -صلى الله عليه وسلم- نزل عليه الذكر، وإنما يخاطبونه بحسب زعمه، والخطاب في القرآن أحياناً يأتي بحسب نظر المخاطب، وإن كان المتكلم لا يؤمن به، وإنما بحسب نظره، سواء كان حقاً أو باطلاً، فخاطبوه بقولهم: {يَآأَيّهَا الّذِي نُزّلَ عَلَيْهِ الذّكْرُ إِنّكَ لَمَجْنُونٌ} هم لا يؤمنون بأنه نزل عليه الذكر، وهو حقيقة نزل عليه الذكر، فهذا بحسب نظر المخاطب مع أنه حق، لكن المتكلم لا يعتقده، مثل قول فرعون: {إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ

---

١ - رواه النسائي برقم (٢٠٧٤)، كتاب الجنائز، باب أرواح المؤمنين، وأحمد في المسند (٢٣٧/٢٠)، برقم (١٢٨٧٣)، وقال محققوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين، والحاكم في المستدرك (٢٤٩/٣)، برقم (٤٩٩٥)، وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، باب ذكر مناقب أبي حذيفة، وصححه الألباني في صحيح فقه السيرة (٢٥٠).

٢ - رواه الإمام أحمد في المسند (٥٠٣/٣٠)، برقم (١٨٥٣٤)، وقال محققوه: إسناده صحيح، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (١٦٧٦).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ}[سورة الشعراء:٢٧]، مع أنه لا يؤمن أنه رسول، وهكذا في قوله -تبارك وتعالى- عن قوم شعيب: {أَصَلاَتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاء إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ}[سورة هود:٨٧]، هم على أحد القولين في الآية، فقيل: إنهم قالوا: {الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ} تهكماً به، وقيل: كانوا يعتقدون فيه أنه حليم رشيد، فكيف صدر منك مثل هذا الشيء الذي يخالف ما عرف من خلقك؟، والله -عزوجل- يقول لموسى وهارون -عليهما الصلاة والسلام-: {فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى} [سورة طــه:٤٤] يعني: على رجائكما، وإلا فالترجي لا يقع من الله -عز وجل-، فهذا أحد الأقوال في توجيه دخول "لعل" في كلام الله -عزوجل- في هذا الموضع، يعني بحسب نظركما، كما قال الله -عز وجل- عن يونس -عليه الصلاة والسلام-: {وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ} [سورة الصافات:١٤٧]، مع أن الله يعرف كم عدد هؤلاء بدقة، ولكن بحسب نظر المخاطب إذا نظر إليهم، هذا على أحد الأقوال في تفسير الآية وتوجيهها، إذا نظر إليهم المخاطب فإنه يقول: هم مائة ألف أو يزيدون، وهكذا أمثلة وأنواع كثيرة.

{لَّوْ مَا} أي: هلّا، {تَأْتِينَا بِالْمَلاَئِكَةِ} أي: **يشهدون لك بصحة ما جئت به إن كنت من الصادقين، كما قال فرعون:** {فَلَوْلا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ}[سورة الزخرف:٥٣]، {وَقَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوّاً كَبِيراً * يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلائِكَةَ لا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْراً مَحْجُوراً}[سورة الفرقان:٢١-٢٢]، **وكذا قال في هذه الآية:** {مَا نُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذاً مُنْظَرِينَ}، **وقال مجاهد في قوله:** {مَا نُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ} **بالرسالة والعذاب، ثم قرر تعالى أنه هو الذي أنزل عليه الذكر وهو القرآن، وهو الحافظ له من التغيير والتبديل.**

قوله: {مَا نُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذاً مُنْظَرِينَ}، يعني {إِلَّا بِالْحَقِّ}: إلا نزولاً متلبساً بالحق، ومعنى النزول الذي يكون بالحق، أي ينزلون بالوحي والرسالة أو ينزلون بالعذاب، وهو الذي يختص بهم، ويتعلق بهؤلاء المقترحين؛ لأن الله -عز وجل- قال: {وَمَا كَانُوا إِذاً مُنْظَرِينَ}، فإذاً، نزّل الملائكة، كما قال الله -عز وجل-: {يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلائِكَةَ لا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْراً مَحْجُوراً}.

{وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الأَوَّلِينَ * وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ * كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ * لاَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ} [سورة الحجر:١٠-١٣].

يقول تعالى مسلياً لرسوله -صلى الله عليه وسلم- في تكذيب من كذبه من كفار قريش: إنه أرسل من قبله في الأمم الماضية وإنه ما أتى أمة من رسول إلا كذبوه واستهزءوا به، ثم أخبر أنه سلك التكذيب في قلوب المجرمين الذين عاندوا واستكبروا عن اتباع الهدى، قال أنس -رضي الله تعالى عنه- والحسن البصري: {كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ} **يعني: الشرك.**

قوله -تبارك وتعالى-: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الأَوَّلِينَ}، الشِّيَع: أصل هذه اللفظة من شاعه إذا تبعه، فالشِّيَع: هي الأمم التي يجتمع بعضها إلى بعض، ويتبع بعضها بعضاً، جمع شيعة، وهي الطائفة التي تجتمع على أمر يتبع بعضها بعضاً فيه، فهؤلاء يقال لهم: شيعة أو من شيعته فلان، {وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ}[سورة الصافات:٨٣] يعني: من أتباعه وأنصاره، والمقصود {فِي شِيَعِ الأَوَّلِينَ} يعني: في أممهم وطوائفهم، يعني في الأقوام

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

السابقين، ثم في قوله -تبارك وتعالى-: {وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ * كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ * لاَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ}، الضمير في قوله: {نَسْلُكُهُ} يرجع إلى الشرك كما يقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: "**قال أنس والحسن يعني: الشرك**"، {فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ}؛ لأن الله قال: {وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ} يعني: يكفرون بدينه ويسخرون منه، لحكمة أرادها الله -تبارك وتعالى-، والله يقول: {وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ}[سورة يوسف:١٠٣]، {وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللّهِ}[سورة الأنعام:١١٦]، وبعضهم قال: إن الضمير يرجع إلى الاستهزاء، {كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ} أي: الاستهزاء {فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ}، كلما جاءهم رسول استهزءوا به، وسخروا منه، ولا يخفى أن بين المعنيين ملازمة، فالاستهزاء لا شك أنه كفر، وهو مظهر من مظاهر كفرهم وتكذيبهم لأنبيائهم، وعتوهم على الله -تبارك وتعالى-، وبعضهم يقول: يعني الذكر؛ لأن الله قال قبله: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ * وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الأَوَّلِينَ * وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ * كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ} يعني الذكر، {نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ} مكذَّباً به لا يدخل قلوبهم إلا على وجه التكذيب والكفر والاستهزاء والسخرية، وبعضهم يقول: المراد بـــ {كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ}: أن هذه سنة الله -تبارك وتعالى- بالمجرمين، يعني كما فعلنا بالمجرمين الذين استهزءوا، نسلك الضلال في قلوب المجرمين، والآية تحتمل المعنيين، وابن جرير -رحمه الله- فسر ذلك بالاستهزاء، والأقرب منهما إذا احتيج إلى الترجيح أن المقصود به الاستهزاء؛ لأن الله -عز وجل- قال: {وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ * كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ} يعني: الاستهزاء، والقول بأن المقصود به الذكر غير بعيد، يعني القرآن، يأخذونه مأخذ المستهزئ، ولا يأخذونه مأخذ المؤمن المصدق الذي يعظم القرآن، ويعتقد أنه كلام الله -تبارك وتعالى- ويمكن أن يجمع بين هذه المعاني لوجود الملازمة بينها، {كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ} يعني: الذكر وهو القرآن، مستهزءاً به على وجه التكذيب والكفر، -والله تعالى أعلم-.

والحافظ ابن القيم -رحمه الله- جمع بين هذه المعاني، فقال -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ * كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ} الآية: "وقد وقع هذا المعنى في القرآن في موضعين هذا أحدهما، والثاني في سورة الشعراء في قوله: {وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الأَعْجَمِينَ * فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ * كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ * لا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ} [سورة الشعراء:١٩٨-٢٠١]، قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: "سلك الشرك في قلوب المكذبين كما سلك الخرزة في الخيط". وقال أبو إسحاق: "أي كما فعل بالمجرمين الذين استهزءوا بمن تقدم من الرسل، كذلك سلك الضلال في قلوب المجرمين". واختلفوا في مفسر الضمير في قوله: {نَسْلُكُهُ} فقال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: "سلكنا الشرك". وهو قول الحسن، وقال الزجاج وغيره: "هو الضلال". وقال الربيع: "يعني الاستهزاء". وقال الفراء: "التكذيب". وهذه الأقوال ترجع إلى شيء واحد، والتكذيب والاستهزاء والشرك كل ذلك فعلهم حقيقة، وقد أخبر أنه سبحانه هو الذي سلكه في قلوبهم. وعندي في هذه الأقوال شيء، فإن الظاهر أن الضمير في قوله: {لا يُؤْمِنُونَ بِهِ} هو الضمير في قوله: {سَلَكْنَاهُ}، فلا يصح أن يكون المعنى لا يؤمنون بالشرك والتكذيب والاستهزاء، فلا تصح تلك الأقوال إلا باختلاف مفسر الضميرين، والظاهر

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

اتحاده، فالذين لا يؤمنون به هو الذي سلكه في قلوبهم وهو القرآن، فإن قيل: فما معنى سلْكه إياه في قلوبهم وهم ينكرونه؟ قيل: سلَكَه في قلوبهم بهذه الحال، أي سلكناه غير مؤمنين به فدخل في قلوبهم مكذَّباً به، كما دخل في قلوب المؤمنين مصدَّقاً به.

وهذا مراد من قال: إن الذي سلكه في قلوبهم هو التكذيب والضلال، ولكن فسر الآية بالمعنى، فإنه إذا دخل في قلوبهم مكذبين به فقد دخل التكذيب والضلال في قلوبهم، فإن قيل: فما معنى إدخاله في قلوبهم وهم لا يؤمنون به؟ قيل: لتقوم عليهم بذلك حجة الله، فدخل في قلوبهم وعلموا أنه حق وكذبوا به، فلم يدخل في قلوبهم دخول مصدَّق به مؤمَن به مرضيّ به، وتكذيبهم به بعد دخوله في قلوبهم أعظم كفراً من تكذيبهم به قبل أن يدخل في قلوبهم، فإن المكذب بالحق بعد معرفته له شر من المكذب به ولم يعرفه، فتأمله فإنه من فقه التفسير، والله الموفق للصواب"[٣].

---

[٣] - انظر: شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل للإمام ابن القيم الجوزية (٦١-٦٢)، تحقيق: محمد بدر الدين أبو فراس النعساني الحلبي، دار الفكر - بيروت، سنة النشر: ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الحجر (٢)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ} [سورة الحجر:١٣] أي: قد عُلم ما فعل تعالى بمن كذب رسله من الهلاك والدمار، وكيف أنجى الله الأنبياء وأتباعهم في الدنيا والآخرة.

{وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَاباً مّنَ السّمَاءِ فَظَلّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ * لَقَالُواْ إِنّمَا سُكّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مّسْحُورُونَ} [سورة الحجر:١٤-١٥].

يخبر تعالى عن قوّة كفرهم وعنادهم ومكابرتهم للحق أنه لو فتح لهم باباً من السماء فجعلوا يصعدون فيه لما صدقوا بذلك، بل قالوا: {إِنّمَا سُكّرَتْ أَبْصَارُنَا}، قال مجاهد وابن كثير والضحاك: سُدت أبصارنا، وقال قتادة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: أُخذت أبصارنا، وقال العوفي عن ابن عباس: شبه علينا وإنما سحرنا. وقال ابن زيد: {سُكّرَتْ أَبْصَارُنَا}، السكران الذي لا يعقل.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {لاَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ}، الحافظ ابن كثير -رحمه الله- حمله على معنى الهلاك الذي يحل بالمكذبين، فعل الله بهؤلاء كما فعل بمن قبلهم، أو أنه يجري عليهم ما يجري على من قبلهم، وهذا معنىً له نظائر في القرآن، ومن أهل العلم من قال: {وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ} يعني: في أن سلَكَ الكفر والضلال في قلوبهم، {لاَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ}، فالأولون كلما جاءهم رسول كذبوه، وقالوا: ساحر أو مجنون، ومن أهل العلم كالحافظ ابن القيم -رحمه الله- من جمع بين المعنيين، وقال: {وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ} أي: دأبهم وعادتهم في تكذيب أنبيائهم، وما يفعله الله -تبارك وتعالى- بهم من الإهلاك.

يقول: {وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَاباً مّنَ السّمَاءِ فَظَلّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ * لَقَالُواْ إِنّمَا سُكّرَتْ أَبْصَارُنَا}، الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا يقول: "**يخبر عن قوة كفرهم وعنادهم ومكابرتهم للحق**"، هؤلاء الذين يكابرون لا يؤمنون مهما رأوا من الآيات، {وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَاباً مّنَ السّمَاءِ فَظَلّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ}، ظلوا يصعدون إلى السماء لما آمنوا، فسيقولون مكابرة: {إِنّمَا سُكّرَتْ أَبْصَارُنَا}، وبعض السلف يقول: {فَظَلّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ} يعني: الملائكة، فيكون الضمير قد عاد إلى غير مذكور، لكنه قد يفهم باعتبار أن الملائكة هم الذين يصعدون، والسماوات لها أبواب، فلو رأوا الملائكة تصعد إلى السماء فإنهم لا يؤمنون، {لَقَالُواْ إِنّمَا سُكّرَتْ أَبْصَارُنَا} على القراءتين المتواترتين، {لَقَالُواْ إِنّمَا سُكِّرت}، و{إِنّمَا سُكِرَتْ}، وبعضهم يقول: إن القراءتين بمعنىً واحد، والحافظ ابن كثير -رحمه الله- جاء بأقوال السلف، فمنهم من يقول: سُدت أو أخذت، ومنهم من يقول: سحرنا، وذكر بعضهم السكر، {سُكِرَت} و{سُكِّرَت}، بحيث صاروا لا يرون، أخذت منهم الأبصار، أو سدت،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فإنهم سيكابرون غاية المكابرة، ويقولون -لو صعدوا-: سحرنا محمد، كما أنهم لما رأوا القمر قد انشق قالوا أيضاً: سحرنا، هذان معنيان ذكرهما السلف، وأما ما يَذكره بعضُ من يتكلم على الإعجاز من أن المقصود بالآية أنهم يصيرون إلى ظلمة بعد مفارقة الغلاف الجوي فهذا غير مراد، ولم يقل به أحد من السلف، والقرآن إنما يخاطب الناس بما يفهمون وما يعهدون، ولا يخاطبهم بشيء لا يخطر لهم على بال، ولا يدور في خيال.

{وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ * وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ * إِلاَّ مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ * وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ * وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ}[سورة الحجر:١٦-٢٠].

يذكر تعالى خلقه السماء في ارتفاعها وما زينها به من الكواكب الثوابت والسيارات، لمن تأمل وكرر النظر فيما يرى من العجائب والآيات الباهرات، ما يحار نظره فيه، ولهذا قال مجاهد وقتادة: البروج ههنا هي الكواكب. قلت: وهذا كقوله -تبارك وتعالى-: {تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا} [سورة الفرقان:٦١] الآية.

وقال عطية العوفي: البروج ههنا هي قصور الحرس. وجعل الشهب حرساً لها من مردة الشياطين؛ لئلا يسمعوا إلى الملأ الأعلى، فمن تمرد وتقدم منهم لاستراق السمع جاءه شهاب مبين فأتلفه، فربما يكون قد ألقى الكلمة التي سمعها قبل أن يدركه الشهاب إلى الذي هو دونه فيأخذها الآخر ويأتي بها إلى وليه، كما جاء مصرحاً به في الصحيح.

قوله: {وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً} أصل مادة البروج يدل على الظهور والانكشاف، ومنه يقال: البرج؛ لظهوره وانكشافه، ومنه قيل للمرأة التي تمشي في وسط الطريق أو بين الرجال أو تظهر محاسنها، قيل لها: متبرجة، فالبروج فسره بعض أهل العلم بالكواكب السيارة، وبعضهم فسره بالمنازل، منازل الشمس والقمر والنجوم السيارة، وهي اثنتا عشرة منزلة معروفة، هي الحمل، والثور، والجوزاء، والسرطان، إلى آخر ما تعرفون، وبعضهم قال: هذا هو المراد، ونقل عن عطية العوفي: البروج هي قصور الحرس، ربما يقصد بذلك أن معناها اللغوي يطلق على قصور الحرس، أو الأماكن التي تكون للحرس، ولا يُفهم من القصر ما نفهم منه اليوم، فهم لا يقصدون به هذا، القصر اليوم نحن نطلقه على البناء الكبير، والمسكن الكبير، والقصر في لغة المتقدمين يطلقونه على البناء الذي يكون من الحجارة، سواء كان صغيراً أو كبيراً، فيقال له: برج، هذا تفسير له بالمعنى اللغوي، ولعله يقصد التفسير بالمعنى اللغوي؛ ليبيّن أن هذه الشهب هي بمنزلة تلك البروج التي يحرس فيها المكان، فهذه الشهب حراسة للسماء، يقول: وجعل الشهب حرساً لها من مردة الشياطين؛ لئلا يسمعوا للملأ الأعلى، فمن تمرد وتقدم منهم لاستراق السمع جاءه شهاب مبين فأتلفه، قال: {وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ * إِلاَّ مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ}، يمكن أن يكون الاستثناء منقطعاً، بمعنى "لكن"، أي لكن من استمع، يعني حُفظت من كل شيطان رجيم، والشيطان: كل عاتٍ متمردٍ فهو شيطان، من شَطَنَ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أي: بَعُدَ، أو من شاط يشيط كما يقول بعضهم: شاط يشيط إذا عتى وتمرد، فكل عاتٍ متمرد عند العرب من الإنس والجن وغيره شيطان كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((الكلب الأسود شيطان))[1].

أيام يدعونني الشيطانَ من غزل *** وكن يهوينني إذ كنت شيطاناً

و:

أيما شاطنٍ عتاه عكاه *** ثم يلقى في القيد والأكبال

هذا مدح لسليمان -عليه الصلاة والسلام-، ويقول: إنه كان يقيد هؤلاء المردة والشياطين، كما قال الله -عز وجل-: {وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ} [سورة ص:٣٨]، فمن استرق السمع فإنه يرمى بهذه الشهب، {شِهَابٌ مُّبِينٌ} يمكن أن يكون المبين بمعنى بيّن ظاهر للأبصار، يُرى ويشاهد هذا الشهاب كما نشاهده، ويمكن أن يكون المراد {شِهَابٌ مُّبِينٌ} أي: ظاهر أثره فيمن وقع عليه، فيقتله، أو يحرقه، أو يخبّله، أو نحو ذلك، والعلماء مختلفون في هذه الشهب، هل تقتل هؤلاء الشياطين أو أنها تصيبهم بشيء من الحرق، أو نحو ذلك لكنها لا تقتلهم، فيلقي لمن بعده وهكذا حتى يصل إلى الكاهن ما يتلقونه؟، جاء في حديث عن عائشة -رضي الله عنها- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- ما يدل على أن الملائكة تنزل في العنان، يعني في السحاب، وأن مسترق السمع يخطف الكلمة عندما يتحدثون بالشيء من أمر الوحي أو من أمر السماء، فيخطفها مسترق السمع، قال الله -عز وجل-: {وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ * وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ * إِلاَّ مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ} يحتمل أن يكون المقصود بالسماء السقف المرفوع، وأن الشياطين يصلون إلى هناك، ثم بعدُ يرمون بالشهب، ويحتمل أن يكون المراد مطلق العلو، فالعرب تطلق السماء على ما علا وارتفع، فسماء الدار سقفها، والسحاب سماء، والله -عز وجل- يقول: {وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً} [سورة المؤمنون:١٨] يعني: من السحاب، فيحتمل أنهم يصعدون إلى ناحية السحاب ويخطفون السمع، ويحتمل أنهم يصلون إلى ما هو أعلى من ذلك، فيرمون بهذه الشهب، فذكر الله -عز وجل-: {وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ} زيناها بالنجوم والكواكب، {وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ * إِلاَّ مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ}، وبعض أهل العلم يجزم ويقول بأن هذه الشهب لا تقتلهم، وليس عليه دليل، وكون هؤلاء قد يخطفون الكلمة وتصل يُفهِم أنه قد لا تصيبهم الشهب، وقد تصيبهم ولا تقتلهم، لكن الجزم هكذا دائماً بأنها تصيبهم ولا تقتلهم هذا يحتاج إلى دليل، والله أعلم.

كما روى البخاري في تفسير هذه الآية عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- يبلُغُ به النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله كأنه سلسلة على صفوان))[2]، قال عليٌّ وقال غيره: صفوان ينفذهم ذلك، فإذا فُزع عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا: للذي قال الحق وهو العلي الكبير، فيسمعها مسترقو السمع، ومسترقو السمع هكذا واحد فوق آخر، -ووصف سفيان بيده، وفرج بين أصابع يده اليمنى، نصبها بعضها فوق بعض- فربما أدرك الشهاب

---

١ - رواه مسلم برقم (٥١٠)، كتاب الصلاة، باب قدر ما يستر المصلي.

٢ - رواه البخاري برقم (٤٤٢٤)، كتاب التفسير، باب تفسير سورة الحجر.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المستمع قبل أن يرمي بها إلى صاحبه فيحرقه، وربما لم يدركه حتى يرمي بها إلى الذي يليه إلى الذي هو أسفل منه حتى يلقوها إلى الأرض، وربما قال سفيان: حتى تنتهي إلى الأرض فتلقى على فم الساحر أو الكاهن فيكذب معها مائة كذبة فيصدَّق، فيقولون: ألم يخبرنا يوم كذا وكذا يكون كذا وكذا، فوجدناه حقاً؟ للكلمة التي سُمعت من السماء.

يقول بعض أهل العلم كابن قتيبة وابن القيم: الناس يتعلقون بالمرة الواحدة التي يجدونها موافقة للواقع وينسون كل ما كان قبلها من عشرات الأخطاء، سواء ذلك في كلام هؤلاء الكهان أو كلام من أشبههم ممن يتنبئون بأمور غيبية، فإذا أصاب مرة وقع ذلك في نفوسهم، وتناقلوه، وتحدثوا به، والمرات الأخرى التي كثيراً ما يخطئ فيها ينسونها جميعاً، والله -عز وجل- يقول في هذا الموضوع أو في هذه القضية بعينها عن الجن، يقول: {وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا}[سورة الجن: ٨]، فهذا قد يفهم منه أنهم يصلون إلى ما فوق السحاب، فتارة تنزل الملائكة إلى السحاب، وهؤلاء يسترقون السمع، وتارة هؤلاء الجن يصلون إلى ما هو أعلى من ذلك، {فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا} وهذه الشهب كان يرمى بها في الجاهلية، قبل مبعث النبي -صلى الله عليه وسلم-، لكنَّه كثف وكثر لما بعث النبي -صلى الله عليه وسلم- فاستغرب الجن، وتساءلوا ما سبب ذلك {وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا} [سورة الجن:١٠].

والشنقيطي -رحمه الله- أطال الكلام على الذين يحاولون الصعود إلى القمر والكواكب أنهم كذبة، وأنهم لا يستطيعون ذلك، وتكلم على معنى الشيطان وأنه كل عاتٍ متمرد من الإنس والجن والحيوانات، وأن هؤلاء الذين يحاولون الصعود شياطين، وأنهم سيرمون بالشهب إذا حاولوا وصعدوا، ولن يستطيعوا الصعود، وسيرجعون خاسئين كما رجع الجن قبلهم، وفسر قوله تعالى: {جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الْأَحْزَابِ} [سورة ص:١١]، وقال: إن هذا التعبير {جُندٌ مَّا هُنَالِكَ} بالإشارة للبعيد يدل على أن المقصود بذلك هؤلاء ومن شابههم، ولكن الآية قد لا تدل على هذا {جُندٌ مَّا هُنَالِكَ}، فهذه الآية نزلت في مكة وكانت علامة تصديق في غزوة بدر، والشنقيطي -رحمه الله- لا ينكر هذا، لكن يقول: فيها زيادة معنى، وهذا هو الفرق بين كلام العلماء وبين كلام غيرهم يتركون المعاني التي قالها السلف ثم يأتون بمعنىً آخر يخالفها، فهو يثبت المعنى الذي قاله السلف، ويقول: وفيه زيادة تدل على هذا وهذا، وتكلم بكلام طويل على الذين يفسرون القرآن بالحقائق العلمية، وأتى بأمثلة، وردها، وكلامه فيه ما هو مقبول وصحيح، وفيه ما لا تدل عليه الآية، وقضية مكان القمر هل هو في السماء أو في الفضاء؟، الشنقيطي رحمه الله يقول بأن القمر في السماء، وليس في الفضاء، واستدل بقول الله -عز وجل-: {وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا} [سورة نوح:١٦]، {فِيهِنَّ} يعني: في السماوات، وفهم من هذا أنه في نفس السماء وليس في الفضاء، وهذا قد لا يكون هو المراد بالآية، وكون هؤلاء وصلوا أو ما وصلوا إذا استطاعوا أن يثبوا هذا الكلام فليس هناك ما يمنع، وهؤلاء على كلامهم -أن القمر يعتبر قريبا- فأين السماء من القمر؟، لكن إلى الآن لا نعرف ما يثبت أنهم وصلوا إلى القمر، ورد عليهم بعض علماء الفلك من الغربيين، وقال: إن هذه الصور التي التقطوها هي صور في صحراء، أظن قالوا: نيفادا، واستدلوا على هذا بأشياء، وقالوا: القمر ليس له ظل أصلاً، واستدلوا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بأن العلم كان يرفرف، قالوا: القمر لا يوجد فيه هواء، فالصورة دبلجت وعملت بشكل متقن، ثم إنهم على ولعهم وشغفهم بالاكتشافات وحرصهم عليها لماذا لم يذهبوا إلا مرةً واحدة؟، فهذا أمر يبعث الشك، والله تبارك وتعالى أعلم.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الحجر (٣)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تتمة تفسير قول الله -جل وعلا-: {وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ} [سورة الحجر:١٩].

قال: ثم ذكر تعالى خلقه الأرض ومده إياها وتوسيعها وبسطها، وما جعل فيها من الجبال الرواسي، والأودية والأراضي والرمال، وما أنبت فيها من الزروع والثمار المتناسبة.

وقال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ} أي: معلوم، وكذا قال سعيد بن جبير وعكرمة وأبو مالك ومجاهد والحكم بن عتيبة والحسن بن محمد وأبو صالح وقتادة.

وقوله: {وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ}[سورة الحجر:٢٠] يذكر تعالى أنه صرفهم في الأرض في صنوف الأسباب والمعايش وهي جمع معيشة، وقوله: {وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ} [سورة الحجر:٢٠] قال مجاهد: هي الدواب والأنعام. وقال ابن جرير: هم العبيد والإماء والدواب والأنعام، والقصد أنه تعالى يمتن عليهم بما يسر لهم من أسباب المكاسب ووجوه الأسباب وصنوف المعايش، وبما سخر لهم من الدواب التي يركبونها، والأنعام التي يأكلونها، والعبيد والإماء التي يستخدمونها، ورِزْقُهم على خالقهم لا عليهم، فلهم هم المنفعة، والرزق على الله تعالى.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ}، قال: "أي: **معلوم**"، وبعضهم فسره {مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ} أي: مقدر، يعني أنزله الله -عز وجل- بقدر قدّره، وبعضهم قال: أي: معدود، وبعضهم يقول: مقسوم، وبعضهم يقول: بميزان {مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ} أي: بميزان الحكمة، وهذه الأقوال لا منافاة بينها، وهي من اختلاف التنوع، أنزل من كل شيء موزون يعني أن الله لم ينزل هذه الأشياء بلا تقدير، وإنما أنزل ذلك وفق حكمته -سبحانه وتعالى- بقدر قدّره، يعلم أن المصلحة والحكمة تقتضيه، كما قال سبحانه: {وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ} [سورة الشورى:٢٧]، هذا في أرزاق الناس، وهكذا ما ينزل عليهم من المطر وغير ذلك إنما هو بقدر قدّره الله -عز وجل- فلا ينزل في محل، ولا ينزل قطرة إلا بقدر، فيوجد نوع من الغزلان مثلاً في بعض الأماكن في أمريكا، هذه الفصيلة تتغذى على نباتات موجودة في تلك الناحية، ولكنها تتكاثر بسرعة، فكان يوجد نمور تفترس هذه الغزلان، فقاموا بقتل كثير من هذه النمور، فتكاثرت الغزلان جداً، وأكلت كل هذا النوع من النباتات، ولم يبق شيء، فصارت تتساقط وتموت بكميات كبيرة، فالله -عز وجل- نزل هذه الأشياء بقدر معلوم، بقدر معلوم متوازن، فكل هذه المعاني التي ذكرها السلف سواء من قال: بميزان الحكمة، أو

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قال: بقدر الحاجة، أو قال: معدود، أو قال: مقسوم، كلها معانٍ متقاربة، وبعضهم يقول: الموزون: هو المحكوم بحسنه، كما تقول: هذا كلام موزون، فلان كلامه موزون أي ليس فيه ما يعاب عليه وكلامه حسن مرتب، لا خطل فيه ولا شطط ولا خلل، وهذا المعنى لا ينافي المعاني السابقة، فإذا كان الشيء مقدراً موزوناً بميزان الحكمة، فهذا مثل قول الناس: هذا قول موزون، كلام موزون، فلان هذا يزن فعله، يزن تصرفاته أي أنه يضبطها، فتكون على وجه حسن، وقال: {وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ}، يقول الحافظ ابن كثير: "**المعايش جمع معيشة**"، وهذا الكلام الذي ذكره الحافظ -رحمه الله-، الكلام الذي قبله يبيّن مراده، قال: "**يذكر تعالى أنه صرفهم في الأرض في صنوف الأسباب والمعايش وهي جمع معيشة**"، بمعنى أن الله -تبارك وتعالى- جعل الأرض صالحة للحرث، وأودع فيها من المعادن وغير ذلك من الأمور التي ينتفع بها الناس، فيتصرفون فيها بألوان التصرفات فتقوم معايشهم في هذه الحياة الدنيا، والمعنى الثاني: أن المقصود بالمعايش المطاعم والمشارب، وما يأكله الناس، يعني جعل فيها ما يعيش عليه الإنسان من الطعام والشراب، هذا المعنى الثاني، والآية تحمل المعنيين، وكل ذلك صحيح -والله تعالى أعلم-، فالله جعل هذه الأرض مهيأة بحيث تقوم عليها معايش الناس ومصالحهم، كما قال: {هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ}[سورة الملك:١٥]، فذللها لهم من أجل أن يتنقلوا عليها ويعملوا فيها من أجل تحصيل أرزاقهم وأقواتهم، والمعنى الثاني: جعل فيها ما تقوم عليه حياتهم من الطعام والشراب وهذا كله حاصل وواقع، وكله داخل في هذه المعايش، -والله تعالى أعلم-.

وقوله: {وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ}، فسرها كثير من السلف بمعنى: لا تقومون برزقهم، وإنما الله -تبارك وتعالى- هو الذي يرزقهم، من الدواب التي تركبونها، أو تأكلونها، وكذلك قول من قال: الوحوش والسباع، يعني جعل الله -عز وجل- لها في الأرض معايش، وكذلك العبيد، الإماء، {وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ}، فقوله: {وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ} "مَن" هذه تفيد العموم، وهي وإن كانت تستعمل للعاقل إلا أنه يمكن أن يدخل فيها غير العاقل تغليباً للعاقل، فالله -تبارك وتعالى- جعل في هذه الأرض معايش تقوم عليها حياة الناس، وجعل فيها معايش تقوم عليها حياة غيرهم ممن لا يرزقونهم، بل قد لا نعلمهم نحن من صنوف الحيوان، وغير ذلك من الحشرات والطيور، ومن أهل العلم من يفسر الآية بغير هذا، فيقول بأن قوله: {وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ} الضمير يعود على محل لكم في قوله: {وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ} يعني كما جعلنا لكم فيها معايش جعلنا فيها من لا تقومون برزقهم، فجعل الأمرين، جعل المعايش وجعل هؤلاء من العبيد والإماء والدواب، والفرق بين المعنيين ظاهر.

{وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ * وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَآءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَآ أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ * وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ * وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ}[سورة الحجر:٢١-٢٥].

يخبر تعالى أنه مالك كل شيء، وأن كل شيء سهل عليه، يسير لديه، وأن عنده خزائن الأشياء من جميع الصنوف، {وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ} كما يشاء وكما يريد، ولِمَا له في ذلك من الحكمة البالغة والرحمة بعباده لا على جهة الوجوب، بل هو كتب على نفسه الرحمة، قال يزيد بن أبي زياد عن أبي جحيفة عن

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عبد الله -رضي الله تعالى عنه-: ما من عام بأمطر من عام، ولكن الله يقسمه بينهم حيث شاء عاماً ههنا وعاماً ههنا، ثم قرأ: {وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ} الآية، رواه ابن جرير.

قوله: {وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ} بمعنى أنه مالك لكل شيء، خزائن السماوات والأرض بيده -تبارك وتعالى-، وبعضهم فسر الخزائن بالمفاتح، فمفاتح الرزق كلها بيده -تبارك وتعالى-، وإذا كانت مفاتح الرزق بيده فإن خزائنها بيده، وبعضهم خص ذلك بالمطر {وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ}، وهذا وإن اختاره كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله-، إلا أنّ أول الآية يدل على العموم، {وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ} يعني ما من شيء إلا عندنا خزائنه، فخزائن جميع الأشياء بيده -تبارك وتعالى- {وَمَا نُنَزِّلُهُ} الضمير في قوله: {ننزله} لا يختص بالمطر، وما ذكره بعض السلف فيما يتعلق بالمطر، وما أورده الحافظ ابن كثير -رحمه الله- عن عبد الله بن مسعود -رضي الله تعالى عنه- كل ذلك لا يعني الحصر، {وَمَا نُنَزِّلُهُ} أي: الرزق الذي منه المطر.

وقوله تعالى: {وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ} أي: تلقح السحاب فتدر ماء، وتلقح الشجر فتفتح عن أوراقها وأكمامها، وذكرها بصيغة الجمع ليكون منها الإنتاج بخلاف الريح العقيم، فإنه أفردها ووصفها بالعقيم وهو عدم الإنتاج؛ لأنه لا يكون إلا من شيئين فصاعداً.

"الرياح" على قراءة الجمهور، وقرأ حمزة: "الريح"، {أَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ}، ومما اشتهر في كلام بعض المتقدمين أن الريح إذا جاءت في القرآن فهي للعذاب، والرياح بخلاف ذلك، والإطلاق غير صحيح، ومما يرده هذه القراءة المتواترة، فليست هذه للعذاب، وكذلك أيضاً في قوله -تبارك وتعالى-: {هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَاءتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ}[سورة يونس:٢٢]، فذكر الريح الطيبة، ويمكن أن يقال: الغالب أن الريح تستعمل لما يكون عذاباً، والرياح لغير ذلك، {وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ} قال: "أي: **تلقح السحاب**".

وعن عبد الله بن مسعود -رضي الله تعالى عنه- في قوله: {وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ} قال: ترسل الريح فتحمل الماء من السماء، ثم تمري السحاب حتى تدر كما تدر اللقحة.

اللقحة يعني الناقة، والناقة لا يستطيع أحد أن يأتي لها ويحلبها مباشرة، بل لا بد له أن يأتي إما بولدها ويجعله يبدأ في رضاعها أو يشمشم ضرعها أو نحو هذا فتبدأ تدر، أو يبدأ يمسح على ضرعها حتى تتهيأ ثم تدر.

وكذا قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- وإبراهيم النخعي وقتادة.

يقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: "**ترسل الريح فتحمل الماء من السماء ثم تمري السحاب حتى تدر كما تدر اللقحة**"، فتدر يعني تخرج هذا المطر، وكذلك يقال في كلام العرب: مرت اللقحة إذا جمعت ماء الفحل في جوفها، فهذا السحاب الرياح تلقحه فيجمع المطر، هذا معنى، والمعنى الثاني: أن الرياح تلقحه بمعنى يكون ذلك كالمري فيدر، فالسحاب لا يكون منه المطر إلا إذا لقحته الريح، وبعض العلماء فسر {الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ} بأن الرياح تحمل السحاب، كما أن الناقة يقال لها: لقحة لأنها تحمل في بطنها جنينها، فالرياح لواقح يعني تحمل السحب، والآية تحتمل المعنيين، لكن ظاهر اللفظ {لَوَاقِحَ} يدل على أنها تلقحه كما تلقح أيضاً الأشجار، وإن كان يحتمل المعنى الآخر.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقال الضحاك: يبعثها الله على السحاب فتلقحه فيمتلئ ماء.

بعض أهل العلم حمله على هذه المعاني، فاللفظ يحتمل هذا وهذا، {الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ} يعني: تحمل كما أن الناقة تحمل اللقحة، قيل لها ذلك لحملها مثلاً، وهي أيضاً تلقح السحاب والشجر، فدل القرآن على أنها تحمل السحاب، فكل هذا داخل في قوله: {لَوَاقِحَ}، وهذا الذي اختاره ابن جرير -رحمه الله-: أنها تقوم بحمل السحاب، وتقوم أيضاً بتلقيحه، كما قال الله -عز وجل-: {أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالاً}، أقلّته بمعنى حملته، ويقول الهذلي:

شَرِبْنَ بماء البحر حتى ترفّعتْ *** متى لُجَجٍ بيضٍ لهنّ نَئيجُ

السحب: الذي يرفعها هو الريح.

وقال عبيد بن عمير الليثي: يبعث الله المبشرة فتقُمّ الأرض قمّاً، ثم يبعث الله المثيرة فتثير السحاب، ثم يبعث الله المؤلّفة فتؤلف السحاب، ثم يبعث الله اللواقح فتلقح الشجر، ثم تلا: {وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ}.

قوله: {الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ} الله -تبارك وتعالى- أطلق ذلك، أي أنها تلقح الأشجار وتلقح السحب، واللقاح بين الأشجار يحصل سواء ما نعلمه أو ما لا نعلمه من نباتات في الصحراء، يتم ذلك بالرياح، والإنسان إنما يلقح النخيل من الأشجار فقط، يأخذ من فحولها ويضع ذلك في إناثها.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الحجر (٤)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله تعالى- في تتمة تفسيره لقوله تعالى: {وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ} [سورة الحجر:٢٢].

وقوله: {فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ} أي: أنزلناه لكم عذباً يمكنكم أن تشربوا منه، لو نشاء جعلناه أجاجاً، كما نبه على ذلك في الآية الأخرى في سورة الواقعة، وهو قوله تعالى: {أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ * أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ * لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجاً فَلَوْلا تَشْكُرُونَ}[سورة الواقعة:٦٨-٧٠]، وفي قوله: {هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ}[سورة النحل:١٠]، وقوله: {وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ} أي: وما أنتم له بحافظين، بل نحن ننزله ونحفظه عليكم ونجعله مَعيناً وينابيع في الأرض، ولو شاء تعالى لأغاره وذهب به، ولكن من رحمته أنزله وجعله عذباً، وحفظه في العيون والآبار والأنهار وغير ذلك، ليبقى لهم في طول السنة يشربون ويسقون أنعامهم وزروعهم وثمارهم.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ} الحافظ ابن كثير -رحمه الله- قال: "**أي: أنزلناه لكم عذباً يمكنكم أن تشربوا منه**"، ومن أهل العلم من يفرق بين هذه اللفظة "أسقيناكم" وبين "سقيناكم"، فيقول: أسقاه بمعنى أعطاه، يعني من الماء ما يكفيه لشربه ولزرعه وبهائمه وما إلى ذلك، كأن يُجري له نهراً أو ينزل له المطر أو غير ذلك، فأسقاه أبلغ وأكثر من سقاه، تقول سقيته ماءً يعني أعطيته قدر ما يرتوي به، وأسقيته أي جعلت له سقيا من نهر، أو مطر، أو بحيرة، أو غير ذلك، مما ينتفع به أكثر من مجرد ما يرتوي به من كأس ماء أو نحو ذلك، ومن أهل العلم من لا يرى فرقاً بينهما، والذي مشى عليه الحافظ ابن كثير -رحمه الله- في تفسيرها ظاهر بأنه يريد أن الله -تبارك وتعالى- إذا أنزله فإنه يحفظه لهم في باطن الأرض، وبعد ذلك يستخرج بالآبار، فلا يذهب ويضيع فلا ينتفعون به، والناس لا يستطيعون هذا، وهم أضعف من أن يفعلوا ذلك، {وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ} ويدل على هذا المعنى قوله -تبارك وتعالى-: {وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاء مَاء بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ}[سورة المؤمنون:١٨] بمعنى أنه جعل الأرض محلاً وظرفاً ووعاءاً له تستخرجونه وقت حاجتكم، والمعنى الثاني: {وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ} أي: ليست خزائنه عندكم في أيديكم، وإنما خزائنه عند الله -عز وجل-، فهو الذي ينزل منه ما يشاء، ويصرفه عمن يشاء، فخزائن الرزق عند الله جل جلاله، وهذا المعنى هو الذي اختاره كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله-، ويدل له قوله -تبارك وتعالى-: {وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عِندَنَا خَزَائِنُهُ} [سورة الحجر:٢١]، وكذلك أيضاً {وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [سورة المنافقون:٧]، والآية تحتمل المعنيين.

وقوله: {وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ} [سورة الحجر:٢٣] إخبار عن قدرته تعالى على بدء الخلق وإعادته، وأنه هو الذي أحيا الخلق من العدم، ثم يميتهم ثم يبعثهم كلهم ليوم الجمع، وأخبر أنه تعالى يرث الأرض ومن عليها، وإليه يرجعون، ثم أخبر تعالى عن تمام علمه بهم أولهم وآخرهم.

الله -تبارك وتعالى- يرث الأرض ومن عليها كما قال الله -عز وجل-: {إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ} [سورة مريم:٤٠] بمعنى أن كل شيء يرجع إليه، فالله -تبارك وتعالى- هو الوارث، وما بأيدي الخلق إنما هو عارية، ثم بعد ذلك يرجع إلى المالك المعبود -سبحانه وتعالى-.

فقال: {وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ} [سورة الحجر:٢٤] الآية، قال ابن عباس -رضي الله عنهما-: المستقدمون كل من هلك من لدن آدم -عليه السلام-، والمستأخرون من هو حي ومن سيأتي إلى يوم القيامة، وروي نحوه عن عكرمة ومجاهد والضحاك وقتادة ومحمد بن كعب والشعبي وغيرهم.

وروى ابن جرير عن محمد بن أبي معشر، عن أبيه: أنه سمع عون بن عبد الله يذاكر محمد بن كعب في قوله: {وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ}، وأنها في صفوف الصلاة، فقال محمد بن كعب: ليس هكذا {وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ} الميت والمقتول، و{الْمُسْتَأْخِرِينَ} من يخلق بعد، {وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ} [سورة الحجر:٢٥]، فقال عون بن عبد الله: وفقك الله وجزاك خيراً.

يقول الله -تبارك وتعالى-: {وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ * وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ}، ثم قال: {وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ}[سورة الحجر:٢٥]، ما قبلها وما بعدها يوضح المراد، فقوله: {عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ} أي: مَن مضى، بعض السلف يقول: الأمم المتقدمة، {وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ} يعني: هذه الأمة، ويمكن أن يفسر بما هو أعم من هذا فيقال: {وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ} أي: من مضى من الأمم والأفراد ممن هلك وفارق الحياة، {وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ} يعني: الذين لا زالوا على قيد الحياة، أو أولئك الذين سيوجدون بعد ذلك، ثم قال: {وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ} يجمع الأولين والآخرين، كما قال الله -عز وجل-: {قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ * لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ} [سورة الواقعة:٤٩-٥٠]، فاستعمال مثل هذه الجملة في القرآن يرد لهذا المعنى في المتقدمين والمتأخرين في الوجود والحياة، والله -عز وجل- يقول: {مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ}[سورة الأحزاب:٢٣]، {قَضَى نَحْبَهُ} جميع الأقوال التي قيلت فيها -والله تعالى أعلم- ترجع إلى شيء واحد، والمقصود أنه {قَضَى نَحْبَهُ} يعني: مات على الصدق والوفاء، {وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ} أي: لا زال على قيد الحياة، وهو الذي يدل عليه ظاهر القرآن، -والله تعالى أعلم-، ومن أهل العلم من يقول: {وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ} أي: في فعل الخيرات، {وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ} الذين يتباطئون ويتثاقلون، وبعضهم يقول: في صف القتال، مستقدمين في صف القتال، وذكر الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: "**عن عون بن عبد الله أنه ذاكر محمد بن كعب -يعني القرضي- في الآية، وأنها في صفوف الصلاة، وقال محمد بن كعب: ليس هكذا، وإنما الميت والمقتول**"، يعني من مضى وفارق الحياة ومن بقي، ولما قال له محمد بن

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كعب القرضي: إن القرينة تدل على هذا، "**فقال عون بن عبد الله: وفقك الله وجزاك خيراً**"، يعني كأنه حل الإشكال، جاء في الحديث عند أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجه أنها في صفوف الصلاة، -والحديث صححه جماعة، منهم الشيخ أحمد شاكر والشيخ الألباني -رحمهما الله- وأن المقصود بالمتقدمين والمتأخرين أنه كانت تصلي في مقدم صفوف النساء امرأة جميلة، كما جاء عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-، فكان بعضهم يتقدم من أجل أن لا يراها، يصلي في الأمام، وبعضهم يتأخر؛ من أجل أن ينظر إليها إذا ركع، وهذا صح إسناده، لكنه من أشكل المواضع في التفسير، والحافظ ابن كثير -رحمه الله- أورد هذه الرواية في الأصل وقال: "**وهذا فيه نكارة شديدة**"، وبعض الذين يحققون ويكتبون استغربوا من الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هذا القول وردوا عليه، وهم إنما ينظرون إلى الإسناد، والحافظ ابن كثير -رحمه الله- ينظر إلى المتن فرأى أن فيه نكارة؛ لأن السياق لا يدل على هذا إطلاقاً لا من قريب ولا من بعيد، فلو نظرنا إلى السياق لا يفهم منه أنه في صف الصلاة من أجل النظر إلى المرأة، إذ كيف يحصل هذا ممن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في أوسطهم وهو إمامهم ويصلي بهم، وزكت نفوسهم بالقرآن، فهل يظن بأصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنهم يأتون ويصلي منهم من يصلي آخر الصف؛ من أجل أن ينظر لهذه المرأة وهو راكع بين يدي ربي العالمين في هذه اللحظات، هذا لا يفعله أراذل الناس أو أسفه السفهاء، ثم إذا وقع هذا فالنبي -صلى الله عليه وسلم- مستحيل أن يترك من يعمل هذا من غير تأديب؛ فلهذا استنكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله-، وابن جرير -رحمه الله- حمل الآية على ما هو أعم من ذلك، ولم يحملها على هذا المعنى بخصوصه.

{وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ * وَالْجَآنَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ} [سورة الحجر:٢٦-٢٧].

قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- ومجاهد وقتادة: المراد بالصلصال ههنا التراب اليابس، والظاهر أنه كقوله تعالى: {خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ * وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ} [سورة الرحمن:١٤-١٥]، **وعن مجاهد أيضاً: الصلصال المنتن، وتفسير الآية بالآية أولى.**

قوله: {مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ} أي: الصلصال من حمأ، وهو الطين، والمسنون: الأملس.

مما تميز به تفسير ابن كثير -رحمه الله- تفسير القرآن بالقرآن، فالصلصال، إذا ضربته فإنه يكون له صلصلة؛ ولهذا قال بعضهم: الصلصال هو الطين المخلوط بالرمل إذا يبس فإنه يصلصل إذا ضرب، وبعضهم يقول: هو الطين اليابس، أو الطين الدقيق الناعم إذا ضربته بعد أن ييبس يُصوّت، وهذا الذي اختاره عامة المفسرين، وهو قول المحققين منهم، واختاره كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله- وجماعة، ومن المعاصرين الشيخ/ محمد الأمين الشنقيطي، هذا الصلصال، فإذا طبخ في النار فإنه يكون فخاراً، والله -تبارك وتعالى- أخبر عن خلق الإنسان أنه من تراب، **{إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ}** [سورة آل عمران:٥٩]، فهذا بدء الخلق، وأخبر أنه خلقه من طين، فهذا التراب لما بُلّ بالماء صار طيناً، ثم ترك فتغير فصار حمأً مسنوناً متغيراً، يميل إلى السواد، ثم بعد ذلك ييبس فصار صلصالاً كالفخار، هذه أطوار خلق

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الإنسان، وقد ذكر الله في كل موضع صفة تصدق على طور من أطواره، فالتراب باعتبار الأصل الأول، والطين مرحلة، والصلصال مرحلة، والله أعلم.

ومجاهد -رحمه الله- يقول: "**الصلصال هو المنتن**"، وهذا له أصل في كلام العرب، يقول: صلَّ اللحم إذا أنتن، {مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ}، وفي آية الكهف {وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ} [سورة الكهف:٨٦] أي: متغيرة، وبعضهم قال: أي: منتنة، والمتغير يسميه الناس غَرَباً، ففي موضع الماء الذي يجتمع فيه ويطول مكثه، يتغير لونه تارة يكون إلى الخضرة، وتارة بلون التراب، وتارة يميل إلى السواد، وهذا الذي يميل إلى السواد هو المنتن، فهذا الحمأ، فهذا توجيه لقول مجاهد -رحمه الله-: إن الصلصال هو المنتن بهذا الاعتبار.

وقوله: {مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ} "أي: **الصلصال من حمإ وهو الطين**"، وبعضهم يقيده ويقول: الطين الأسود، وبعضهم يقول: الطين المتغير، ولا منافاة، كما يقول ابن جرير -رحمه الله-، {مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ} وبعضهم يقول: أصل ذلك أنك إذا حككت حجرين ببعضهما فما يكون منهما من فتات هو المسنون، يقال: وهذا مسن، للآلة التي تحد بها السكين أو السيف أو نحو هذا، ويقال: سننت الحجر، بمعنى حككته، ويقال: أسن الماء إذا تغير، وبه فسر بعضهم قوله تعالى: {مِّن مَّاء غَيْرِ آسِنٍ}[سورة محمد:١٥] يعني: غير متغير، فالماء إذا بقي مدة طويلة يتغير، وبعضهم يفسره بالمصبوب، وبعض أئمة العربية كسيبويه -رحمه الله-، يقول بأن الحمأ المسنون هو المصوَّر، وبعضهم يجمع بين المعنيين فيقول: صُبَّ بطريقة صُوِّر فيها، وبعضهم يقول: طويل يقال: وجه مصلول للوجه الطويل، وهذا يرجع إلى المصوَّر، كل هذه الأقوال ترجع إلى هذا المعنى، المصوَّر، والظاهر المتبادر أن المقصود به -والله تعالى أعلم- الطين المتغير.

وقوله: {وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ} أي: من قبل الإنسان {مِن نَّارِ السَّمُومِ} قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: هي السموم التي تقتل.

وقال أبو داود الطيالسي: حدثنا شعبة عن أبي إسحاق قال: دخلت على عمر الأصم أعوده، فقال: ألا أحدثك حديثاً سمعته من عبد الله بن مسعود، يقول: هذه السَّموم جزء من سبعين جزءاً من السموم التي خلق منها الجان، ثم قرأ {وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ}. وقد ورد في الصحيح: ((خُلقت الملائكة من نور، وخلقت الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم))[1]. والمقصود من الآية التنبيه على شرف آدم -عليه السلام- وطيب عنصره وطهارة محتده.

قول الحافظ ابن كثير -رحمه الله- عن ابن عباس -رضي الله عنهما-: "**هي السموم التي تقتل**"، أصل السموم هي الريح الحارة التي تتخلل المسام، ولهذا سميت بهذا الاسم، وقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: "**طهارة محتده**" يعني طهارة أصله، وطهارة معدنه، والله -عز وجل- أخبر عن خلق الجن فقال: {مِن نَّارِ السَّمُومِ} يعني: الحارة، وأخبر أنه خلق الجان من مارج من نار، والمارج: هو أعلاها، ما يكون في أعلى النار؛ ولهذا أخذ منه بعض أهل العلم أن الجن كما يقول شيخ الإسلام: فيهم خفة أعظم مما في الإنس، والعلماء لما ردوا على إبليس في قياسه الفاسد {قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ} [سورة

---

[1] - رواه مسلم برقم (٢٩٩٦)، كتاب الزهد والرقائق، باب في أحاديث متفرقة.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الأعراف:١٢] ردوا عليه من عدة أوجه، من ضمن الأوجه التي ردوا عليه فيها أنهم قالوا: إن الطين أشرف من النار، فالطين تضع فيه الحبة وتخرج سنبلة، والنار لا تضع فيها شيئاً إلا أحرقته، فهي تتلف، ثم الطين فيه من الرزانة ما ليس في النار، إلى غير ذلك من الوجوه التي ردوا عليه فيها، فالشاهد أن الجن خلقوا من مارج من نار، ولا شك أن أصل آدم أشرف وأفضل من أصل إبليس، والله -عز وجل- عليم حكيم، ولهذا كان في البشر من الرزانة ما ليس في الجن، وفيهم من الهداية والاستقامة والعلم، وفيهم النبوة، والصلاح فيهم أعظم وأكثر مما هو في الجن -والله تعالى أعلم-.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الحجر (٥)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله- في تفسير قوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلآئِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ * فَسَجَدَ الْمَلآئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ * قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلاَّ تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ * قَالَ لَمْ أَكُن لأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ}[سورة الحجر:٢٨-٣٣].

يذكر تعالى تنويهه بذكر آدم في ملائكته قبل خلقه له، وتشريفه إياه بأمر الملائكة بالسجود له، ويذكر تخلف إبليس عدوه عن السجود له من بين سائر الملائكة؛ حسداً وكفراً وعناداً واستكباراً وافتخاراً بالباطل؛ ولهذا قال: {لَمْ أَكُن لأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ}، كقوله: {أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ}[سورة الأعراف:١٢]**، وقوله: {أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ}**[سورة الإسراء:٦٢] **الآية.**

{قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ * قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ * إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ}[سورة الحجر:٣٤-٣٨].

يذكر تعالى أنه أمر إبليس أمراً كونياً لا يخالف ولا يمانع بالخروج من المنزلة التي كان فيها من الملأ الأعلى، وأنه رجيم: أي مرجوم، وأنه قد أتبعه لعنة لا تزال متصلة به لاحقة له متواترة عليه إلى يوم القيامة، وعن سعيد بن جبير أنه قال: لما لعن الله إبليس، تغيرت صورته عن صورة الملائكة، ورن رنة، فكل رنة في الدنيا إلى يوم القيامة منها، رواه ابن أبي حاتم[1].

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: **{وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلآئِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ}**، فهذه الآية دلت على أن الله -تبارك وتعالى- أمرهم بالسجود لآدم قبل أن يخلقه، حينما أخبرهم بخلقه، وقال الله تعالى: **{وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلآئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا}**[سورة البقرة:٣٠]، فأخبرهم عن خلقه، ثم بعد ذلك بعدما خلقه قال: **{وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلآئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ}**[سورة البقرة:٣٤]، هذا ظاهره أنه بعد خلقه؛ لأن الله قال: **{وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلآئِكَةِ}** [سورة البقرة:٣١]، فبين لهم فضله ثم أمرهم بالسجود له، وفي هذه الآية **{فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ}**، ويمكن أن يكون -والله تعالى أعلم- أن الله أعلمهم بخلقه، وأمرهم بالسجود له إذا خلقه، ثم بعد أن خلقه وبيّن فضله عليهم، وعلمه أسماء الأشياء، أمرهم

---

١ - انظر: تفسير ابن أبي حاتم (٦١/٩).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بالسجود له، ولا منافاة، ثم إن قوله -تبارك وتعالى-: {فَسَجَدَ الْمَلآئِكَةُ كُلّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلاّ إِبْلِيسَ أَبَىَ أَن يَكُونَ مَعَ السّاجِدِينَ} فإذا قيل: إن إبليس من الملائكة فالاستثناء متصل، {فَسَجَدَ الْمَلآئِكَةُ كُلّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلاّ إِبْلِيسَ} أبى أن يسجد، ومعلوم أن الملائكة {لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ} [سورة التحريم:٦]، فالذين قالوا: إنه من الملائكة، قالوا: إن الله -تبارك وتعالى- قد كتب عليه الشقاء؛ وذلك لحكمة عظيمة وهي تحقق الابتلاء في هذه الحياة الدنيا، والصراع بين الحق والباطل والخير والشر، وقوله تعالى: {إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ} [سورة الكهف:٥٠] تدل على أنه ليس من الملائكة، وقوله: {فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ} أي: خرج عن أمر ربه، والذين يقولون: إنه من الملائكة مختلفون في توجيه قوله: {كَانَ مِنَ الْجِنِّ} فيقول بعضهم: يوجد صنف من الملائكة يقال لهم: الجن، وبعضهم يأخذ المعنى العام لكلمة الجن، من الاجتنان، فتقول: المِجَنّ؛ لأنه يستر المقاتل من ضرب السيوف ورمي النبال وما أشبه ذلك، والجنين لأنه مختفٍ، والجَنّة؛ لأنها تستر من دخلها، لكثرة أشجارها، ونحو ذلك، وهذا كله لا يخلو من تكلف، والذين قالوا: إنه من الملائكة ليس لهم مستند إلا مثل هذا الاستثناء، ويمكن أن يكون هذا الاستثناء من قبيل المنقطع، بمعنى "لكن"، أي: سجد الملائكة لكن إبليس لم يسجد، ولم يكن منهم أصلاً، لكنه كان في الملأ الأعلى، وأما ما نقله عن سعيد بن جبير -رحمه الله- من أنه لما لعن تغيرت صورته عن الملائكة، فهذا باعتبار أنه من الملائكة، ثم إن مثل هذا يحتاج إلى دليل؛ لأن هذا إما أن يكون من قبيل المأخوذ عن بني إسرائيل، ولا عبرة به، وإما أن يكون مما تُلقي عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-؛ لأنه لا يقال من جهة الرأي، ومثل هذا يكون من قبيل المرسل.

وقوله: {قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ}، رجيم على وزن فعيل، وفعيل يأتي بمعنى فاعل، ويأتي بمعنى مفعول، فرجيم يحتمل أن يكون بمعنى فاعل أي راجم؛ لأنه يرجم الناس بالوساوس والخواطر السيئة، والمعنى الثاني -وهو المشهور المتبادر وهو المناسب للسياق- أن فعيل بمعنى مفعول أي مرجوم، كما أنك إذا قلت: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، يعني المرجوم فهو يُرجم بالسب واللعن وما إلى ذلك، {وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ}، بعض أهل العلم يقول: إن عليه اللعنة إلى يوم القيامة، وما بعد يوم القيامة، أو إذا جاء يوم القيامة فإنه ينتظره العذاب الذي هو أعظم وأشد من اللعن، لكن إذا كان اللعن هو الطرد والإبعاد عن رحمة الله -عز وجل- فإن هذا مستمر إلى يوم القيامة، فهو أبعد ما يكون عن رحمة الله، ولهذا فإن من معاني كلمة "الشيطان":المُبعَد، من شَطَنَ إذا بعُد، أي أنه بعيد عن رحمة ربه -تبارك وتعالى-، وبعيد عن الخير، فهذه اللعنة إلى يوم القيامة، وفي الآخرة يكون ملعوناً، والعرب تعبر بمثل هذا يقال مثلاً: هذا إلى يوم القيامة، أو: إلى يوم البعث، أو نحو ذلك، ويقصد به التأبيد، أي: أن هذا لا يكون، أو أنه لا يفعل ذلك أبداً، فالعرب قد تجعل الغاية إلى محدد كهذا وهي تقصد التأبيد.

{قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لأُزَيّنَنّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلاّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ * قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيّ مُسْتَقِيمٌ * إِنّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاّ مَنِ اتّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَإِنّ جَهَنّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ * لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلّ بَابٍ مّنْهُمْ جُزْءٌ مّقْسُومٌ}[سورة الحجر:٣٩-٤٤].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يقول تعالى مخبراً عن إبليس وتمرده وعتوه أنه قال للرب: {بِمَآ أَغْوَيْتَنِي} أي: بسبب ما أغويتني وأضللتني، {لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ} أي: لذرية آدم -عليه السلام-، {فِي الْأَرْضِ} أي: أحبب إليهم المعاصي وأرغبهم فيها وأوزهم إليها، وأزعجهم إليها إزعاجاً، {وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ} أي: كما أغويتني وقدرت عليّ ذلك، {إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ} كقوله: {أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلاً}، قال الله تعالى له متهدداً ومتوعداً: {هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ} أي: مرجعكم كلكم إليّ، فأجازيكم بأعمالكم إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

قوله: {إِلاّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ} بفتح اللام {الْمُخْلَصِينَ} يعني الذين خلصهم الله -عز وجل-، وكتب لهم الهداية، وهذه القراءة {الْمُخْلَصِينَ} هي قراءة أهل المدينة وأهل الكوفة، وقرأه الباقون بالكسر، بكسر اللام {إِلاّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلِصِينَ}، إذا كان لكل قراءة معنىً يخصها فهما بمنزلة الآيتين، فدلت القراءة الأولى على أنه لا يتخلص من كيد إبليس إلا من نجاه الله -عز وجل- وخلصه واصطفاه للهدى والإيمان، ودلت القراءة الثانية على أنه لا يتخلص من كيد إبليس إلا أهل الإخلاص، فقوله: {إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ} أي: ولكن من اتبعه من الغاوين فإن سلطانه يكون عليهم، ولذلك يقال: {إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ}، إذا قيل بأن المقصود في العباد الإضافة، يعني كل العباد {إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ}، فيكون الاستثناء متصلاً، استثنى من هؤلاء الخلق من اتبعه من الغواة، وإذا قيل بأن الإضافة إضافة تشريف وأن المقصود أهل الأيمان والتقوى والطاعة، {إِنَّ عِبَادِي} كما قال: {وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا} [سورة الفرقان:٦٣]، عبودية الاختيار، {إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ} لكن {مَنِ اتَّبَعَكَ}، يكون الاستثناء منقطعاً، أي: فإن سلطانك يكون واقعاً عليهم، كما قال الله -تبارك وتعالى-: {إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ} [سورة النحل:١٠٠]، والمقصود بالسلطان: أنه ليس له حجة عليهم في الإغواء، كما مضى في قوله -تبارك وتعالى-: {وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي} [سورة إبراهيم:٢٢]، فيقول: أنا لم يكن لي حجة في هذا الإضلال الذي أضللتكم وإنما دعوتكم فاستجبتم، واتبعتم النفوس الأمارة بالسوء والهوى، والسلطان يأتي بمعنى الغلبة والقهر والتسلط، وهذا كله داخل في قوله -تبارك وتعالى-: {وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا} [سورة الإسراء:٣٣]، فمن فسره بالحجة فإن تفسيره لا يخالف التفسير الآخر الذي هو التسلط والقهر، فإن السبيل إلى تسلط وليّ الدم على القاتل إنما هو حجته، وهو أنه صاحب حق، وهو ولي الدم، وهذا قُتل مظلوماً، وهذا قاتل، فيمكن أن يكون هذا، ويمكن أن يكون هذا.

والحافظ ابن كثير -رحمه الله- يقول على قوله تعالى: {قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ}: "**أي مرجعكم كلكم إليَّ، فأجازيكم بأعمالكم إن خيراً فخير وإن شراً فشر**"، مرجعكم جميعاً إليَّ، فيحتمل أن يكون هذا من قبيل التهديد والوعيد، كأنه يقول: أينما تذهب أنت ومن اتبعك فطريقكم عليّ، بمعنى أنك ستعاقبه وتحاسبه بما فعل وما صدر منه، وبعضهم يفسر هذا {هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ} أي: هذا حق عليّ مراعاته، وهو أن عبادي الذين أخلصتهم ليس لك عليهم سلطان.

كقوله تعالى: {إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ} [سورة الفجر:١٤]، كقوله: {وَعَلَى اللّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ} [سورة النحل:٩].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قوله: {إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ} من قبيل التهديد، يعني أن طريقكم عليّ فأعاقبكم وأحاسبكم وآخذكم، فأين تذهبون؟، {إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ}، وقوله: {وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ} أي: بيان السبيل القاصد، والسبيل: هي الطريق، تذكر وتؤنث، والقصد صفة لها، فهذا من باب إضافة الصفة إلى الموصوف، وعلى الله بيانها وإيضاحها، أو المعنى الثاني: {وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ} أي: أنها توصل إليه.

وقال ابن القيم -رحمه الله تعالى- في تفسير قول الله تعالى: {هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ}: "قال الحسن: معناه صراط إليّ مستقيم، وهذا يحتمل أمرين: أن يكون أراد به أنه من باب إقامة الأدوات بعضها مقام بعض.

فقامت أداة "على" مقام "إلى"، والثاني: أنه أراد التفسير على المعنى، وهو الأشبه بطريق السلف، أي صراط موصل إليّ، وقال مجاهد: الحق يرجع إلى الله وعليه طريقه لا يعرج على شيء، وهذا مثل قول الحسن وأبين منه وهو من أصح ما قيل في الآية، وقيل: {عَلَيَّ} فيه: للوجوب أي: عليَّ بيانه وتعريفه والدلالة عليه، والقولان نظير القولين في آية النحل وهي: {وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ} والصحيح فيها كالصحيح في آية الحجر أن السبيل القاصد -وهو المستقيم المعتدل- يرجع إلى الله ويوصل إليه، قال طفيل الغنوي:

مضَوْا سلفاً قصد السبيل عليهمُ *** وصرفُ المنايا بالرجال تشقلب

أي: ممرنا عليهم وإليهم وصولنا، وقال الآخر:

فهنّ المنايا أي واد سلكته *** عليها طريقي أو عليّ طريقها

فإن قيل: لو أريد هذا المعنى لكان الأليق به أداة "إلى" التي هي للانتهاء لا أداة "على" التي هي للوجوب، ألا ترى أنه لما أراد الوصول قال: {إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ}[سورة الغاشية:٢٥-٢٦]، وقال: {إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ}[سورة لقمان:٢٣]، وقال: {إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ} [سورة القيامة:١٧]، وقال: {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا}[سورة هود: ٦] ونظائر ذلك.

قيل: في أداة "على" سر لطيف وهو الإشعار بكون السالك على هذا الصراط على هدى، وهو حق، كما قال في حق المؤمنين: {أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ}[سورة البقرة:٥] وقال لرسوله -صلى الله عليه وسلم-: {فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ}[سورة النمل:٧٩]، والله -عز وجل- هو الحق، وصراطه حق، ودينه حق، فمن استقام على صراطه فهو على الحق والهدى، فكان في أداة "على" على هذا المعنى ما ليس في أداة "إلى" فتأمله فإنه سر بديع"[٢].

بمعنى أن "على" تدل على الظهور والاستعلاء، فمن سلك الصراط المستقيم فهو مستعلٍ بسلوكه، ولهذا جاء التعبير بعلى في بعض المواضع في كتاب الله -عز وجل- فيما يتعلق بسلوك الصراط، فالآية تدور على هذين المعنيين، ويبقى التعليل إذا قيل بأن المقصود من قوله: {قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ} أي: "إليّ" لماذا عبر بـــ"على"؟، فيكون هذا من النكات البلاغية فقط، وإلا فيكون أصل المعنى: {هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ} أي: أنه بمعنى "إليّ"، والمعنى الثاني: صراط عليّ بيانه وإيضاحه.

---

٢ - مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (١/١٥-١٦).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقال -رحمه الله-: "فإن قلت: فما الفائدة في ذكر "على" في ذلك أيضاً، وكيف يكون مستعلياً على الحق وعلى الهدى؟

قلت: لما فيه من استعلائه وعلوه بالحق والهدى مع ثباته عليه واستقامته إليه، فكان في الإتيان بأداة "على" ما يدل على علوه وثبوته واستقامته، وهذا بخلاف الضلال والريب فإنه يؤتى فيه بأداة "في" الدالة على انغماس صاحبه وانقماعه وتدسسه فيه كقوله تعالى: {فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ} [سورة التوبة:٤٥]، وقوله: {وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ}[سورة الأنعام:٣٩]، وقوله: {فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ}[سورة المؤمنون:٥٤] وقوله: {وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ}[سورة هود:١١٠].

وتأمل قوله تعالى: {وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ}[سورة سبأ:٢٤]، فإن طريق الحق تأخذ علواً صاعدة بصاحبها إلى العلي الكبير، وطريق الضلال تأخذ سفلاً هاوية بسالكها في أسفل سافلين.

وفي قوله تعالى: {هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ} قول ثالث وهو قول الكسائي: إنه على التهديد والوعيد نظير قوله: {إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ} كما يقال: طريقك عليّ وممرك عليّ، لمن تريد إعلامه بأنه غير فائت لك ولا معجز، والسياق يأبى هذا ولا يناسبه لمن تأمله، فإنه قاله مجيباً لإبليس الذي قال: {لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ} فإنه لا سبيل لي إلى إغوائهم ولا طريق لي عليهم، فقرر الله -عز وجل- ذلك أتم التقرير وأخبر أن الإخلاص صراط عليه مستقيم، فلا سلطان لك على عبادي الذين هم على هذا الصراط؛ لأنه صراط عليّ، ولا سبيل لإبليس إلى هذا الصراط ولا الحَوْم حول ساحته، فإنه محروس محفوظ بالله فلا يصل عدو الله إلى أهله.

فليتأمل العارف هذا الموضع حق التأمل ولينظر إلى هذا المعنى ويوازن بينه وبين القولين الآخرين أيهما أليق بالآيتين وأقرب إلى مقصود القرآن وأقوال السلف.

وأما تشبيه الكسائي له بقوله: {إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ} فلا يخفى الفرق بينهما سياقاً ودلالةً فتأمله، ولا يقال في التهديد: هذا طريق مستقيم عليّ لمن لا يسلكه، وليست سبيل المهدد مستقيمة، فهو غير مهدد بصراط الله المستقيم، وسبيله التي هو عليها ليست مستقيمة على الله، فلا يستقيم هذا القول ألبته"[٣].

فقوله: {إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ} من قبيل الوعيد، {إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ} بالرصد، والرصد إنما يكون في الأصل على الطريق، فهو يقول: طريقكم عليّ، فأين تذهبون؟ وأين تفرون؟ هذا مرادهم بهذا القول، وإلا فهم لا شك أنهم غير سالكين للصراط، وللتعبير في مثل هذا الموضع بقوله: {هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ} نظائره في القرآن، وإذا ذكر الصراط في القرآن، {الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ} [سورة الفاتحة:٦]، فهو الطريق الذي يسلكه أولياؤه، وهو الطريق الذي رسمه الله -عز وجل- لعباده؛ ولهذا أضافه إلى نفسه فقال: {صِرَاطِ اللَّهِ}[سورة الشورى:٥٣] يعني: هو الذي رسمها وشرَّعها وأمر بسلوكها، وأضافها إلى أهل الإيمان قال: {صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ} [سورة الفاتحة:٧]، باعتبار أنهم هم السالكون، الشيء يضاف تارة إلى سالكه، وتارة إلى من يملك ذلك، كما قال الله -عز وجل-: {وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ}[سورة الأحزاب:٣٣]، مع أن البيوت للنبي -صلى الله عليه وسلم-، وقال:

---

٣ - مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (١/١٦-١٧).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

{لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِن بُيُوتِهِنَّ}[سورة الطلاق:١]، أضاف البيوت إليهن مع أنها للزوج، باعتبار أن الزوجة هي المنتفعة بها، هي الساكنة لها فأضافها إليها.

وقال الإمام ابن القيم -رحمه الله-: "وسمعت شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن تيمية -رضي الله تعالى عنه- يقول: وهما نظير قوله تعالى: {إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى * وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى} [سورة الليل:١٢-١٣]، قال: فهذه مواضع في القرآن في هذا المعنى.

قلت: وأكثر المفسرين لم يذكر في سورة {وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى} [سورة الليل:١] إلا معنى الوجوب، أي علينا بيان الهدى من الضلال، ومنهم من لم يذكر في سورة النحل إلا هذا المعنى كالبغوي، وذكر في "الحجر" الأقوال الثلاثة، وذكر الواحدي في بسيطه المعنيين في سورة النحل، واختار شيخنا قول مجاهد والحسن في السور الثلاث"[٤] أ.هـ.

كما قال الله -عز وجل-: {إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا}[سورة الإنسان:٣]، أي: سبيل الحق والهدى والرشاد والصراط المستقيم، {إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا}.

وقوله: {إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ}[سورة الحجر:٤٢] أي: الذين قدرتُ لهم الهداية فلا سبيل لك عليهم ولا وصول لك إليهم، {إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ} استثناء منقطع، وقد أورد ابن جرير ههنا عن يزيد بن قسيط قال: كانت الأنبياء يكون لهم مساجد خارجةً من قراهم، فإذا أراد النبي أن يستنبىء ربه عن شيء خرج إلى مسجده فصلى ما كتب الله له، ثم سأله ما بدا له، فبينا نبي في مسجده إذ جاء عدو الله ــ يعني إبليس ــ حتى جلس بينه وبين القبلة، فقال النبي:"أعوذ بالله من الشيطان الرجيم" فقال عدو الله: أرأيت الذي تَعَوّذ منه؟ فهو هو، فقال النبي: "أعوذ بالله من الشيطان الرجيم"، قال: فردد ذلك ثلاث مرات، فقال عدو الله: أخبرني بأي شيء تنجو مني؟

قوله: "**أرأيت هذا الذي تتعوذ منه؟ فهو هو**"، عبر بضمير الغائب تأدباً؛ حتى لا يضيف القارئ هذا إلى نفسه، أو الناقل أو الراوي، تأدباً قال: "**فهو هو**"، كما في قصة أبي طالب لما دعاه النبي -صلى الله عليه وسلم- إلى الإيمان، قال: ((هو على ملة عبد المطلب))[٥]، والأصل أنه قاله بضمير المتكلم، لكن لا يحسن بالإنسان أن ينسب إلى نفسه شيئاً قبيحاً مثل هذا، فكانوا يتنزهون ويتأدبون في العبارة، يقول له: إن الذي تستعيذ منه حاضر عندك، قد حضر، يعني الشيطان، ولكن مثل هذه الرواية في الغالب مأخوذة عن بني إسرائيل.

فقال عدو الله: أخبرني بأي شيء تنجو مني؟ فقال النبي: بل أخبرني بأي شيء تغلب ابن آدم؟ مرتين، فأخذ كل واحد منهما على صاحبه، فقال النبي: إن الله تعالى يقول: {إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ}، قال عدو الله: قد سمعت هذا قبل أن تولد. قال النبي: ويقول الله: {وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [سورة الأعراف:٢٠٠]، وإني والله ما أحسست بك قط إلا استعذت

---

٤ - مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (١/١٧-١٨).

٥ - رواه البخاري، كتاب الجنائز، باب إذا قال المشرك عند الموت لا إله إلا الله، برقم (١٢٩٤)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب أول الإيمان قول لا إله إلا الله، برقم (١٤١).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بالله منك. قال عدو الله: صدقت، بهذا تنجو مني، فقال النبي: أخبرني بأي شيء تغلب ابن آدم؟ قال آخذه عند الغضب والهوى.

يعني الإنسان يقع في المعصية ثم يدرك أن ذلك من الشيطان، {إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَواْ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ * وَإِخْوَانُهُمْ} [سورة الأعراف:٢٠١-٢٠٢] يعني إخوان الشياطين {يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لاَ يُقْصِرُونَ}، {يَمُدُّونَهُمْ} أي: أن الشياطين تمدهم في الغي فيزدادون غياً وضلالاً وإعراضاً عن الله -عز وجل-، والمؤمن لا يلدغ من جحر واحد مرتين، ومع ذلك إبليس يوقعه مرة بعد مرة بعد مرة في معصية الله -تبارك وتعالى-، ويقولون: إن إبليس جاء إلى آدم -عليه الصلاة والسلام- حينما حملت حواء، وقبل ذلك جاءه وأخرجه من الجنة، وحينما حملت حواء جاءه كما في قوله: {فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلاَ لَهُ شُرَكَاء فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ}[سورة الأعراف:١٩٠]، ذهب كثير من السلف من الصحابة فمن بعدهم في تفسير الآية إلى أن ذلك في تسمية الولد، ولد آدم، قال: سمياه عبد الحارث، ولكن مثل هذا لا يثبت، ولا يعول عليه ولا يظن هذا بأهل الإيمان فضلاً عن نبي كريم وهو آدم -صلى الله عليه وسلم-، فمثل هذا هو من قبيل الإسرائيليات، لو قيل: إن ذلك يمكن أن يكون قد أخذ عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فيكون من قبيل المرسل وهو من أنواع الضعيف.

قوله: {وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ} أي: جهنم موعد جميع من اتبع إبليس، كما قال عن القرآن: {وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ}، ثم أخبر أن لجهنم سبعة أبواب {لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ} أي: قد كُتب لكل باب منها جزء من أتباع إبليس يدخلونه لا محيد لهم عنه -أجارنا الله منها- وكل يدخل من باب بحسب عمله، ويستقر في درك بقدر عمله، ومنازلهم بأعمالهم، فذلك قوله: {لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ}.

بعض أهل العلم يفسر ذلك باعتبار الطبقات، أن كل طبقة لطائفة، أعلى طبقة من النار هي للعصاة من المؤمنين، من الموحدين، وهذه هي التي قالوا بأنهم يخرجون منها، وهي تفنى عند بعض من فسر بعض النصوص الواردة في هذا المعنى، قالوا: طبقة أهل الإيمان، وهناك طبقات أخرى، طبقة لليهود، وطبقة للنصارى، وطبقة للمجوس، وطبقة للمشركين، وآخر طبقة للمنافقين، ولها سبعة أبواب، كل باب لطبقة من هذه الطبقات، هذا قاله طوائف من السلف فمن بعدهم، ومثل هذا لا يجزم به؛ لأن المقصود قد يكون غير ذلك، والعلم عند الله -عز وجل-.

{إِنّ الْمُتّقِينَ فِي جَنّاتٍ وَعُيُونٍ * ادْخُلُوهَا بِسَلاَمٍ آمِنِينَ * وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مّنْ غِلّ إِخْوَاناً عَلَىَ سُرُرٍ مّتَقَابِلِينَ * لاَ يَمَسّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مّنْهَا بِمُخْرَجِينَ * نَبّئْ عِبَادِي أَنّي أَنَا الْغَفُورُ الرّحِيمُ * وَأَنّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ} [سورة الحجر:٤٥-٥٠].

لما ذكر تعالى حال أهل النار عطف على ذكر أهل الجنة وأنهم في جنات وعيون. وقوله: {ادْخُلُوهَا بِسَلامٍ} أي: سالمين من الآفات، مسلَّم عليكم.

الحافظ -رحمه الله- عادته الجمع بين المعاني التي قالها السلف، فالسلف فسروا قوله: {ادْخُلُوهَا بِسَلامٍ}: بعضهم قال: ادخلوها حال كونكم مسلَّماً عليكم، الذي يسلم عليهم الله تبارك وتعالى لقوله: {سَلَامٌ قَوْلًا مِن رَّبٍّ رَّحِيمٍ} [سورة يـــس:٥٨]، وتسلم عليهم أيضاً الملائكة، لقوله تعالى: {وَالمَلاَئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ *

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

سَلاَمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ{[سورة الرعد:٢٣-٢٤]، وكذلك يحيي بعضهم بعضاً بالسلام، والمعنى الثاني: {ادْخُلُوهَا بِسَلامٍ} قال: أي سالمين من الآفات، وهذا معنى من معاني السلام، السلامة من الآفات، والعيوب، والنقائص، ولهذا من أسماء الله -عز وجل- السلام، {الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ}[سورة الحشر:٢٣] أي: السالم من كل عيب وآفة ونقص، فإذا ألقيت على أحد السلام قلت: السلام عليك، فهذا السلام اسم من أسماء الله -عز وجل-، وفيه تأمين لهذا المسلَّم عليه، فهو بمعنى الأمن، أنه لا يصل إليه مكروه من قبلك، وفيه أيضاً دعاء له بالسلامة، كل هذه المعاني داخلة في قولك: السلام عليكم، فقوله: {ادْخُلُوهَا بِسَلامٍ} أي: سالمين من الآفات مسلَّم عليكم، جمع فيها بين القولين، وهذه مزية لمثل هذا الكتاب، وللكتب التي تحرر فيها العبارة ويجمع فيها بين أقوال السلف -رضي الله عنهم-.

{آمِنِينَ} أي: من كل خوف وفزع، ولا تخشوا من إخراج ولا انقطاع ولا فناء.

قوله: {ادْخُلُوهَا بِسَلامٍ آمِنِينَ}، الأمن يكون بمعنى أنه لا تنتابهم فيها المخاوف، ولا يحصل لهم فزع كما يفزع غيرهم، فأهل النار يعيشون في فزع دائم وخوف لا ينقطع، وفي أهوال وأوجال لا طاقة لهم بها، ومن المعاني الداخلة في قوله: {آمِنِينَ} معني أنهم يأمنون فيها من الموت، ومن الإخراج، والإنسان إذا كان في مكان يتنعم ويلتذ فيه، فإنه يتنغص إذا علم أنه سيفارقه، وينتقل عنه، أو أن الموت سيهجم عليه، أو إذا كانت تنتابه المخاوف فتتعطل لذاته، وتتلاشى وتتقشع، ولذلك الإنسان إذا كان في خوف شديد، أو في غم وهم، أو حزن شديد فإنه لا يجد لذة للطعام الذي يأكله، ولا يستطيع مضغه، وهكذا جميع اللذات، والدراسات التي تُنشر تَذكر في حال الناس الذين عندهم اكتئاب أن ذلك يكون سبباً لتعطل جوانب عندهم فيما يتعلق بحقوق الزوجات من المعاشرة مثلاً؛ لأنه لا يجد إقبالاً إطلاقاً على هذا، وهذا مشاهد من هؤلاء الذين يعانون من هذه المشكلات، أو يشعر بخوف، فالخائف لا يجد نفسه تقبل على شيء من لذاته، وإنما همه أن يؤمن نفسه، ثم بعد ذلك يتفرغ لما تطلبه هذه النفس من المطالب الأخرى، فذكر الأمن؛ لأن الإنسان إذا شعر أو تذكر بأنه سيفارق الحياة، أو كان خائفاً فإنه لا يتنعم.

هو الموت ليس كالموت شيء *** نغّص الموتُ ذا الغنى والفقير

فمهما كان الإنسان في لذة وحبور إذا تذكر أنه سيموت ويفارق كل ما يملك فإنه تتنغص عليه لذته ويتكدر عليه عيشه؛ ولهذا ذكر الله -عز وجل- الأمن في نعيم الجنة، وذكر الخلود فيها، وذكر في بعض المواضع الإذن، فالشيء المأذون فيه غير الذي يأخذه الإنسان مسارقة، أو بغير رضا صاحبه؛ ولهذا ذكر الله -عز وجل- الرضا في مواضع أخرى {رَّضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ}[سورة المائدة:١١٩]، وهذا لا شك أنه كمال النعيم.

وقوله: {وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ}، روى القاسم عن أبي أمامة -رضي الله تعالى عنه- قال: يدخل أهل الجنة الجنة على ما في صدورهم في الدنيا من الشحناء والضغائن، حتى إذا توافوا وتقابلوا نزع الله ما في صدورهم في الدنيا من غل، ثم قرأ: {وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ}، هكذا في هذه الرواية، والقاسم بن عبد الرحمن في روايته عن أبي أمامة ضعيف، ولكن هذا موافق لما في الصحيح من رواية قتادة: حدثنا أبو المتوكل الناجي أن أبا سعيد الخدري -رضي الله تعالى عنه- حدثهم

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((يَخْلُصُ المؤمنون من النار، فيُحبسون على قنطرة بين الجنة والنار، فيُقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا حتى إِذا هُذبوا ونقوا، أذن لهم في دخول الجنة))[٦].

هذا هو المعتمد، وليس ذلك بموافق لما قبله من الأثر عن أبي أمامة -رضي الله تعالى عنه-، على ضعف هذا الأثر، فذاك الأثر يقول: إنهم يحصل لهم التنقية بعد دخول الجنة، ولكن هذا الحديث الصحيح يدل على أنهم ينقون قبل دخولها، فالجنة لا يدخلها إلا طيب، هي دار طيبة لا يدخلها إلا الطيب من الناس، ولذلك فإن الله يمحص أهل الإيمان، والنبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر))[٧]، وليس معنى ذلك أنه يخلد في النار، وإنما المقصود أنه ينقى بالعذاب ويطهر حتى يذهب ذلك منه، فيدخل الجنة وهو سالم من هذه الآفات، فمن لم ينقّ بالإيمان والتزكية في الدنيا فإنه ينقى بكير النار يوم القيامة، إلا من لطف الله به ورحمه، هذا الأمر الذي ذكره الله -عز وجل- {وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ} هو مكمل للنعيم السابق، يكون لهم الأمن ويدخلونها بسلام، ولهم الخلود، والله يكتب عليهم رضوانه، مع ذهاب الغل؛ لأن وجود الغل منغص للنعيم، تجد الرجل في غاية المُتع، وفي محل البهجة، ويعيش في أفضل الأماكن، ولكن إذا كان قلبه يحمل الغل فإنه يعذب بهذا الغل، يتنغص عليه عيشه، وتتكدر عليه حياته ولذاته، فإذا تذكر من يحمل عليه الضغينة، فإن قلبه ينعصر، ويفارقه النوم، ويشعر بالأسى، فمن كمال النعيم أن لا يوجد في قلب الإنسان غل، فأهل الجنة ينقيهم الله -عز وجل- من ذلك، فلا يكون فيها غل ولا حسد ولا شحناء، ويؤخذ من هذا أن صاحب الغل يعذب به يوم القيامة، نسأل الله العافية، وهو عذاب في الدنيا قبل الآخرة، مع أن الذي يَحمل عليه هذا الغلَّ ربما يكون ساهياً لاهياً لا يضره هذا الغل شيئاً، بل قد لا يشعر به أصلاً، وإنما الذي يتعذب بالغل ويجد ألمه وحسراته هو صاحب الغل الذي يحمله في قلبه، فهو يتنقل معه حيث ذهب، ويكدر عليه عيشه، ويشوش عليه فكره، ولا يجد لذة للعبادة، نسأل الله العافية، والموفَّق من وفقه الله -عز وجل-.

وحذف رواية سُنيد بهذا الاعتبار يكون خللاً في الاختصار، ورواية سُنيد عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: "لا يدخل مؤمن الجنة حتى ينزع الله ما في صدره من غل، حتى ينزع منه مثل السبع الضاري"، ولابد من الإشارة إلى الذي يوافق ما في الصحيح، وهي رواية سُنيد بن داود المصيصي، وليست رواية القاسم التي ذكرها ابن عبد الرحمن في روايته عن أبي أمامة.

وقوله: {لاَ يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ} يعني: المشقة والأذى، كما جاء في الصحيحين: ((أن الله أمرني أن أبشر خديجة ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب))[٨]. وقوله: {وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ} كما جاء

---

٦ - رواه البخاري، كتاب الرقائق، باب القصاص يوم القيامة، برقم (٦١٧٠).

٧ - رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه، برقم (٩١).

٨ - رواه البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب تزويج النبي -صلى الله عليه وسلم- خديجة وفضلها -رضي الله عنها-، برقم (٣٦٠٩)، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة -رضي الله تعالى عنهم-، باب فضائل خديجة أم المؤمنين -رضي الله تعالى عنها-، برقم (٢٤٣٢).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

في الحديث: ((يقال يا أهل الجنة إن لكم أن تصحوا فلا تمرضوا أبداً، وإن لكم أن تعيشوا فلا تموتوا أبداً، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبداً، وإن لكم أن تقيموا فلا تظعنوا أبداً))[٩]. **وقال الله تعالى: {خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا}** [سورة الكهف:١٠٨].

وقوله: {نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ} أي: أخبر يا محمد عبادي أني ذو رحمة وذو عذاب أليم، وقد تقدم ذكر نظير هذه الآية الكريمة وهي دالة على مقامَي الرجاء والخوف.

هذه المواضع المذكورة في قوله: {لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ}، وفي الحديث إذا جُمعت فإنه يحصل منها كمال النعيم، بخلاف هذه الدنيا، ففيها المخاوف، وفيها النصب والتعب، {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ}[سورة البلد:٤]، يدخل إليها باكياً ويخرج منها مبكياً عليه، وفيها ألوان الشقاء والعناء، وما يقع في قلب الإنسان من الغل وأمور كثيرة تنغص عليه لذته وسروره، ثم بعد ذلك الموت يأتي ويأخذه، والله المستعان.

مسألة:

هل المقصود من قوله تعالى: {وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ}[سورة إبراهيم:٣٤]: كل ما يدعو به الإنسان يستجاب له؟

بعض أهل العلم فسر "مِن" هذه أنها تبعيضية، **أي {وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ}** شيئاً، وهذه الآية لا تدل على أن الإنسان يُعطى كل ما سأل، أو كل ما طلب، أو كل ما أراد، وإنما **{وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ}** الله يمتن على عباده فأعطاهم الله -عز وجل- ما يحتاجون إليه لإقامة معايشهم وبقائهم في هذه الحياة، وامتن عليهم بأنواع النعم من المآكل والمشارب واللباس والأثاث والرياش، ونحو ذلك من ألوان النعم، وهكذا في قوله -تبارك وتعالى-: {مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ} [سورة هود:١٥] وقوله -تبارك وتعالى-: {مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاء لِمَن نُّرِيدُ}[سورة الإسراء:١٨]، والمراد به: يُفهم على ضوء الآيات الأخرى {عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاء لِمَن نُّرِيدُ} فقيدها بقيدين، مع أنه أطلقها في آية هود، {عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاء لِمَن نُّرِيدُ} فمن أراد الله إعطاءه أعطاه ما شاء من العطاء، وليس كل طالب لها يُعطى مطلوبه.

وقوله تعالى: {وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ}[سورة الصافات:١٤٧] بعضهم يقول: إن "أو" بمعنى الواو أي ويزيدون، فهي حرف تأتي بمعنى العطف، ويمكن أن تأتي بمعنى الواو، وبعضهم يفسر ذلك بالإضراب، {وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ} أي بل يزيدون، وهذا لا إشكال فيه، لكن إذا قيل: إن "أو" بمعنى الشك {أَوْ يَزِيدُونَ} فهذا يفسر بأن ذلك خرج بحسب نظر المخاطبين {أَوْ يَزِيدُونَ} بحيث إن الناظر إليهم يقول: إن هؤلاء مائة ألف أو أكثر، لكن الله لا يخفى عليه شيء، ولكن يأتي الخطاب مُراعىً فيه حال السامع، وكما

---

٩ - رواه مسلم، بلفظ: ((ينادي منادٍ إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدا، وإن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبدا، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبدا، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبدا، فذلك قوله عز وجل: {وَنُودُواْ أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ}[سورة الأعراف:٤٣]))، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في دوام نعيم أهل الجنة، برقم (٢٨٣٧)، من حديث أبي سعيد الخدري وأبي هريرة -رضي الله عنهما.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ذكرنا في نظائره كقوله تعالى: {فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى} [سورة طــه:٤٤] مع أن الله يعلم أنه لن يتذكر ولن يخشى، إذا فسرت "لعل" بالترجي، فالله لا يترجى.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الحجر (٦)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ * إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلاماً قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ * قَالُواْ لاَ تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلاَمٍ عَلِيمٍ * قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىَ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ * قَالُواْ بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلاَ تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ * قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّآلُّونَ}[سورة الحجر:٥١-٥٦].

يقول تعالى: وأخبرهم يا محمد عن قصة {ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ}، والضيف يطلق على الواحد والجمع كالزور والسفر، وكيف {دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلاماً قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ} أي: خائفون، وقد ذكر سبب خوفه منهم لما رأى أيديهم لا تصل إلى ما قربه إليهم من الضيافة، وهو العجل السمين الحنيذ، {قَالُوا لا تَوْجَلْ} أي: لا تخف {وَبَشَّرُوهُ بِغُلامٍ عَلِيمٍ} أي: إسحاق -عليه السلام- كما تقدم في سورة هود، ثم {قَالَ} متعجباً من كبره وكبر زوجته ومتحققاً للوعد {أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ} فأجابوه مؤكدين لما بشروه به تحقيقاً وبشارة بعد بشارة {قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ}.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -رحمه الله-: "**وقد ذكر سبب خوفه منهم لما رأى أيديهم لا تصل إلى ما قربه إليهم من الضيافة**"، إن الله -عز وجل- في كل قصص الأنبياء مثلاً أو الأمم يذكر ما يناسب الأمر الذي سيقت له القصة، فأحياناً يذكر القصة مبسوطة مفصلة، وأحياناً يذكر ما يناسب، فذكر في الذاريات أنه جاءهم بعجل حنيذ، وأنه راغ إلى أهله -ذهب خفية وبسرعة- ثم بعد ذلك قربه إليهم وقال: {أَلَا تَأْكُلُونَ}[سورة الذاريات:٢٧]، وقال: {فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لاَ تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً}[سورة هود:٧٠]؛ لأن من أراد شراً فإنه لا يأكل مما يقدم إليه من الطعام، فخاف أن يكون هؤلاء قد أرادوا به سوءاً، فقالوا له: لا تخف، وقوله: {وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ}[سورة الذاريات:٢٨] أي إسحاق -عليه السلام-، وهذا لا شك فيه، إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- قال لهم هنا: {أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ}، والواقعة التي جاءوا فيها إلى إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- وأخبروه عن إهلاك قوم لوط، وجادلهم في هذا هي واقعة واحدة، وهي التي حصلت فيها البشارة كما في قول الله -تبارك وتعالى- لما جاءوا إلى إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- فبشروه، قال: {وَامْرَأَتُهُ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَقَ وَمِن وَرَاء إِسْحَقَ يَعْقُوبَ * قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَاْ عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ}[سورة هود:٧١-٧٢]، قالوا لإبراهيم -صلى الله عليه وسلم-: لا تخف، لما رأوه وجل منهم، ثم بشروه بإسحاق، والمرأة التي بُشرت هي أم إسحاق، {وَامْرَأَتُهُ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَقَ}، فهذا هو الغلام العليم الذي ذكره الله -عز وجل-، وليس إسماعيل قطعاً.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

{قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ * قَالُواْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىَ قَوْمٍ مّجْرِمِينَ * إِلاّ آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجّوهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلاّ امْرَأَتَهُ قَدّرْنَآ إِنّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ}[سورة الحجر:٥٧-٦٠].

يقول تعالى إخباراً عن إبراهيم -عليه السلام- لما ذهب عنه الروع وجاءته البشرى، أنه شرع يسألهم عما جاءوا له، فقالوا: {إِنّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىَ قَوْمٍ مّجْرِمِينَ} يعنون قوم لوط، وأخبروه أنهم سينجون آل لوط من بينهم إلا امرأته فإنها من الهالكين؛ ولهذا قالوا: {إِلاّ امْرَأَتَهُ قَدّرْنَآ إِنّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ} أي: الباقين المهلَكين.

وأخبروه في موضع آخر عن إهلاك قوم لوط {إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ * قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ} [سورة العنكبوت:٣١-٣٢] إلى آخره، فذُكرت القصة في هذه السورة مختصرة.

وقوله -تبارك وتعالى- عن قيل الملائكة: {إِلاّ امْرَأَتَهُ قَدّرْنَآ إِنّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ}، قدرنا يعني قضينا وحكمنا، وقوله: {إِنّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ} قال الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: "**أي: الباقين المهلَكين**"، وكلمة الغابر تأتي بمعنى الذاهب، وتأتي بمعنى الباقي، فمن أهل العلم من فسر {مِنَ الْغَابِرِينَ}[سورة الأعراف:٨٣] أي: من الذاهبين في الهلاك، ومنهم من فسرها بالباقين، يعني الباقين في الهلاك، فهي من الأضداد، ولا إشكال في حملها على المعنيين -والله تعالى أعلم-، ومثل هذا لا يحتاج إلى ترجيح، فهي من الذاهبين في الهلاك، وإذا فسر بالباقين فهي من الباقين في العذاب، لا تنجو معه، مثل ما يقال في قوله -تبارك وتعالى-: {فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ} [سورة القلم:٢٠] والصريم بعضهم قال: يعني سوداء محترقة، وبعضهم قال: بيضاء، يعني جرداء ليس فيها زرع، هذا هو المقصود، ولا إشكال، فالمقصود أن ما فيها من زروع وحروث وشجر وما أشبه ذلك كل هذا قد تلف وزال فأصبحت سوداء محترقة، أو أصبحت بيضاء بمعنى أن النبات الذي فيها قد اضمحلّ وزال.

{فَلَمّا جَآءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ * قَالَ إِنّكُمْ قَوْمٌ مّنكَرُونَ * قَالُواْ بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ * وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقّ وَإِنّا لَصَادِقُونَ} [سورة الحجر:٦١-٦٤].

يخبر تعالى عن لوط لما جاءته الملائكة في صورة شباب حسان الوجوه، فدخلوا عليه داره قال: {إِنّكُمْ قَوْمٌ مّنكَرُونَ * قَالُواْ بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ} يعنون بعذابهم وهلاكهم ودمارهم الذي كانوا يشكون في وقوعه بهم وحلوله بساحتهم، {وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقّ}، كقوله تعالى: {مَا نُنَزّلُ الْمَلاَئِكَةَ إِلاَّ بِالْحَقّ}. وقوله: {وَإِنَّا لَصَادِقُونَ} تأكيد لخبرهم إياه بما أخبروه به من نجاته وإهلاك قومه.

{فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مّنَ اللّيْلِ وَاتّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَامْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ * وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَلِكَ الأمْرَ أَنّ دَابِرَ هَؤُلاَءِ مَقْطُوعٌ مّصْبِحِينَ}[سورة الحجر:٦٥-٦٦].

يذكر تعالى عن الملائكة أنهم أمروه أن يسري بأهله بعد مضي جانب من الليل، وأن يكون لوط -عليه السلام- يمشي وراءهم ليكون أحفظ لهم، وهكذا كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يمشي في الغزو إنما يكون ساقة يُزجي الضعيف ويحمل المنقطع. وقوله: {وَلا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ} أي: إذا سمعتم الصيحة بالقوم فلا تلتفتوا إليهم، وذروهم فيما حل بهم من العذاب والنكال.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

من أهل العلم من حمل الالتفات على الالتفات الحسي، يعني لا تنظروا إليهم، امضوا في طريقكم ولا يلتفت منكم أحد، ومنهم من فسر ذلك بالالتفات المعنوي، يعني {وَلا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ}: لا تقفوا عند إهلاكهم، وليس معناه النظر والالتفات بالرأس، والأول هو الأقرب -وهو ظاهر الآية- أنهم نهوا عن الالتفات، أن لا يلتفت أي: لا ينظر إليهم حال إهلاكهم.

{وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ} **كأنه كان معهم من يهديهم السبيل.**

لا يلزم أن يكون معهم من يهديهم السبيل، و{حَيْثُ تُؤْمَرُونَ} **أي** حيث يأمره الله -عز وجل- **عن طريق الوحي.**

{وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ} **أي: تقدمنا إليه في هذا،** {أَنَّ دَابِرَ هَؤُلاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ} **أي: وقت الصباح كقوله في الآية الأخرى:** {إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ}.

قوله: {أَنَّ دَابِرَ هَؤُلاءِ} الدابر: هو الآخر، أن دابرهم مقطوع مصبحين، تقول: قَطع دابرَهم يعني استأصلهم عن آخرهم، لم يُبق منهم أحداً، معنى ذلك أنه أهلكهم جميعاً.

{وَجَآءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ * قَالَ إِنّ هَؤُلاَءِ ضَيْفِي فَلاَ تَفْضَحُونِ * وَاتّقُواْ اللّهَ وَلاَ تُخْزُونِ * قَالُواْ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ * قَالَ هَؤُلاَءِ بَنَاتِي إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ * لَعَمْرُكَ إِنّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ}[سورة الحجر:٦٧-٧٢].

يخبر تعالى عن مجيء قوم لوط لما علموا بأضيافه وصباحة وجوههم، وأنهم جاءوا مستبشرين بهم فرحين، {قَالَ إِنّ هَؤُلاَءِ ضَيْفِي فَلاَ تَفْضَحُونِ * وَاتّقُواْ اللّهَ وَلاَ تُخْزُونِ} **وهذا إنما قاله لهم قبل أن يعلم أنهم رسل الله، كما قال في سورة هود، وأما ههنا فتقدم ذكر أنهم رسل الله، وعطف بذكر مجيء قومه ومحاجته لهم، ولكن الواو لا تقتضي الترتيب ولا سيما إذا دل دليل على خلافه.**

جاء الملائكة إليه على أنهم ملائكة، وأخبروه لما قال لهم: {إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ}، قالوا: {بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ} عرف أنهم ملائكة، ثم جاء أهل المدينة يستبشرون، في ترتيب الآيات أنهم جاءوا بعد أن عرف أنهم من الملائكة، {وَجَآءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ * قَالَ إِنّ هَؤُلاَءِ ضَيْفِي فَلاَ تَفْضَحُونِ}، فالواو {وَجَآءَ} هي التي يتحدث عنها الحافظ ابن كثير -رحمه الله- يقول: "**إنها لا تقتضي الترتيب**"، الواو أصلاً لا تقتضي الترتيب، {وَجَآءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ} جاء أهل المدينة قبل أن يدور هذا الحوار بين لوط -صلى الله عليه وسلم- وبين الملائكة، وقبل أن يعرف أنهم ملائكة، فلما نزل به هؤلاء الأضياف جاءه قومه {وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُواْ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلاء بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُواْ اللّهَ وَلاَ تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ * قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ * قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً} [سورة هود:٧٨-٨٠]، على القولين أنه وجه هذا الخطاب للملائكة، أو أنه وجهه لقومه {أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ} [سورة هود:٨٠]، عندئذ قال الملائكة: {يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُواْ إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ} [سورة هود:٨١] فالواو هذه لا تقتضي الترتيب.

فقالوا له مجيبين: {أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ} **أي: أوَ ما نهيناك أن تضيّف أحداً؟.**

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قوله: {أَوَلَمْ نَنْهَكَ} يحتمل أنهم نهوه عن أن يضيّف أحداً، ويحتمل أن يكون المعنى {أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ} أي: أن تجادلنا فيهم، دع الناس وشأنهم، لا تجادلنا في أحد، ولا تنكر علينا هذا العمل، {أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ}.

فأرشدهم إلى نسائهم وما خلق لهم ربهم منهن من الفروج المباحة. وقد تقدم إيضاح القول في ذلك بما أغنى عن إعادته.

قوله: {هَؤُلاء بَنَاتِي} قيل إنه عرض عليهم التزوج من بناته، والمشهور أن قوله: {هَؤُلاء بَنَاتِي} أي: بنات القبيلة، والنبي بمنزلة الأب لقومه، على قراءة آية الأحزاب "النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وهو أب لهم وأزواجه أمهاتهم"، لكنها قراءة ليست متواترة، والقراءة الأخرى: "النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم وهو أب لهم"، قراءة أبيّ وابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-، والأبوة أبوتان كما قيل، أبوة ولادة، وأبوة تعليم وتربية.

هذا كله وهم غافلون عما يراد بهم وما قد أحاط بهم من البلاء، وماذا يصبحهم من العذاب المستقر؛ ولهذا قال تعالى لمحمد -صلى الله عليه وسلم-: {لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ} [سورة الحجر:٧٢].

كلام الحافظ ابن كثير -رحمه الله- باعتبار أنهم قوم لوط، يجادلونه في هؤلاء الأضياف، ويريدون فعل الفاحشة بهم، وهؤلاء ملائكة جاءوا بعذابهم، وهذا هو الظاهر المتبادر، والقول الآخر الذي قال به طائفة من السلف: إن ذلك يقصد به كفار قريش، {إنهم لَفِي سَكْرَتِهِمْ}، ولكن هذا فيه بعد، والله أعلم.

وقوله: {لَعَمْرُكَ} المقصود القسم بعمر النبي -صلى الله عليه وسلم-، يقال: عُمرٌ وعَمرٌ بالفتح والضم، ولكن صار الذي يستعمل مع القسم ما كان بالفتح؛ لأنه أخف على اللسان من أن يقول: لعُمرك، فيقال: لعَمرك، فهو قسم.

ولهذا قال تعالى لمحمد -صلى الله عليه وسلم-: {لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ} أقسم تعالى بحياة نبيه -صلوات الله وسلامه عليه-، وفي هذا تشريف عظيم ومقام رفيع وجاه عريض.

وقيل: إن هذا قسم بحياة لوط -عليه الصلاة والسلام-، وإن الذين أقسموا هم الملائكة، ولكن هذا بعيد.

قال عمرو بن مالك النكري عن أبي الجوزاء عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- أنه قال: ما خلق الله وما ذرأ وما برأ نفساً أكرم عليه من محمد -صلى الله عليه وسلم-، وما سمعت الله أقسم بحياة أحد غيره، قال الله تعالى: {لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ} يقول: وحياتك وعمرك وبقائك في الدنيا. {إنهم لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ} رواه ابن جرير.

وقال قتادة: {لَفِي سَكْرَتِهِمْ} أي: في ضلالهم، {يَعْمَهُونَ} أي: يلعبون، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {لَعَمْرُكَ} لعيشك {إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ} قال: يترددون.

قوله: {يَعْمَهُونَ} أي: يتخبطون ويتحيرون ويترددون، وذكر الحافظ ابن القيم -رحمه الله- أنه عبر بالسكرة {إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ} على أن المراد -كما هو المشهور والظاهر المتبادر- قوم لوط، وليس المراد به قريش، عبر بالسكرة؛ لأن سكر الشهوة يماثل سكر الشراب، فإذا كانت الشهوة غالبة على الإنسان فإنه يصير في حال مثل السكر، فيوقعه ذلك في ما يدنس شرفه ومروءته، ولربما بلغ به الأمر أن يقع على بنته وأخته

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ومحارمه -نسأل الله العافية- وكل ذلك بسبب سكر الشهوة؛ ولذلك فإن هؤلاء الذين يجنون على أنفسهم فيشاهدون الأفلام السيئة والمواقع السيئة، يصلون إلى حالة تشبه السكر، ثم بعد ذلك يقع على أقرب من يجد، فكم رجلٍ وقع على بناته، وهذا يقع على أخته، يكون في حال مثل السكران، مثل البهيمة تماماً، يريد شيئاً يقضي فيه وطره، ولو لم يقض هذا الوطر لوجد عنتاً وتعباً وألما في جسده، نسأل الله العافية، والله المستعان.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الحجر (٧)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله- في تفسير قوله تعالى: {فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ * فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيات لِلْمُتَوَسِّمِينَ * وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ} [سورة الحجر:٧٣-٧٧].

يقول تعالى: {فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ}: وهي ما جاءهم به من الصوت القاصف عند شروق الشمس -وهو طلوعها- وذلك مع قلب بلادهم وجعل عاليها سافلها، وإرسال حجارة السجيل عليهم، وقد تقدم الكلام على السجيل في هود بما فيه كفاية، وقوله: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ} أي: إن آثار هذه النقم الظاهرة على تلك البلاد لمن تأمل ذلك وتوسمه بعين بصره وبصيرته، كما قال مجاهد في قوله: {لِلْمُتَوَسِّمِينَ} قال: المتفرسين، وعن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- والضحاك: للناظرين. وقال قتادة: للمعتبرين، وقال مالك عن بعض أهل المدينة: {لِلْمُتَوَسِّمِينَ} للمتأملين.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله تعالى: {حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ} جاء السجيل مفسراً في قوله: {مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ}[سورة الذاريات:٣٤] أي: معلمة، وأحسن ما يفسر به القرآن القرآن، وقال في موضع آخر: {لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ}[سورة الذاريات:٣٣]، فيكون ذلك تفسيراً للسجيل، وهذا من تفسير اللفظة بلفظة أوضح منها وأكثر استعمالاً، وقوله: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ} قال: الحافظ رحمه الله: "**لمن تأمل ذلك وتوسمه بعين بصره وبصيرته**"، يعني بعين بصره أنه ينظر نظر المتأمل المتفحص، وبصيرته بأن يجيل فكره بما يرى، "**كما قال مجاهد: للمتفرسين، ونقل عن ابن عباس والضحاك: للناظرين، وقال قتادة: للمعتبرين، وقال مالك عن بعض أهل المدينة: {لِلْمُتَوَسِّمِينَ} للمتأملين**"، كل هذه العبارات متقاربة، وما نقل من أنه للناظرين، هو من باب التعبير بما يقرب المعنى، وإلا فلا شك أن المتفرسين ليس المراد به الناظرين، وإنما التفرس يكون نظراً وزيادة، وذلك بأن ينظر الإنسان نظر تفحص وتأمل؛ ولهذا عبر من عبر بالمتفرسين والمتأملين، فهذا هو نظر الاعتبار، والله -عز وجل- قال عن فقراء المهاجرين: {تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ}[سورة البقرة:٢٧٣] أي: بما يظهر عليهم من الحاجة والفقر في تقاطيع وجوههم، من شحوب ونحو ذلك، وهكذا في ثيابهم ولباسهم، وأحوالهم كلها، قال: {لِلْفُقَرَاء الَّذِينَ أُحصِرُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاء مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لاَ يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللّهَ بِهِ عَلِيمٌ}[سورة البقرة:٢٧٣]، {تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ} يعرفهم المتفرس في أحوالهم.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقوله: {وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ} أي: وإن قرية سدوم التي أصابها ما أصابها من القلب الصوري والمعنوي والقذف بالحجارة، حتى صارت بحيرة منتنة خبيثة بطريق مَهْيَع مسالكه مستمرة إلى اليوم، كقوله: {وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ}، وقوله: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ} أي: إن الذي صنعنا بقوم لوط من الهلاك والدمار وإنجائنا لوطاً وأهله لدلالة واضحة جلية للمؤمنين بالله ورسله.

قوله تعالى: {وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ} السبيل هو الطريق، يذكر ويؤنث، {مُقِيمٍ} أي: أنها قائمة مسلوكة، يعني ليست بطريق مندثرة مهجورة، {وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ} هي على الطريق، طريقكم في ذهابكم إلى الشام، وكانوا يمرون عليها في تجارتهم وأسفارهم ويعرفونها، يقول: "**حتى صارت بحيرة منتنة خبيثة بطريق مَهْيَع مسالكه مستمرة إلى اليوم**"، ويقصد بهذه البحيرة البحر الميت، فيقال: إنها كانت قرى قوم لوط، -والله تعالى أعلم-.

{وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الأيْكَةِ لَظَالِمِينَ * فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنّهُمَا لَبِإِمَامٍ مّبِينٍ} [سورة الحجر:٧٨-٧٩].

أصحاب الأيكة هم قوم شعيب -عليه السلام-، قال الضحاك وقتادة وغيرهما: الأيكة الشجر الملتف، وكان ظلمهم بشركهم بالله وقطعهم الطريق ونقصهم المكيال والميزان، فانتقم الله منهم بالصيحة والرجفة وعذاب يوم الظلة، وقد كانوا قريباً من قوم لوط بعدهم في الزمان، ومسامتين لهم في المكان؛ ولهذا قال تعالى: {وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُبِينٍ} أي: طريق مبين، قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- ومجاهد والضحاك وغيره: طريق ظاهر؛ ولهذا لما أنذر شعيب قومه قال في نذارته إياهم: {وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ}[سورة هود:٨٩].

قوله: {وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الأيْكَةِ لَظَالِمِينَ}، وقال الله تعالى: {كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ} [سورة الشعراء:١٧٦] بمعنى أنهم كذبوا جميع الرسل؛ لأن من كذب رسولاً فقد كذب سائر الرسل، كما قال الله -عز وجل-: {كُلٌّ آمَنَ بِاللّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ} [سورة البقرة:٢٨٥]، فمن فرق بين الرسل -عليهم الصلاة والسلام- فآمن ببعض وكفر ببعض فهو كافر بجميعهم، كما قال الله -تبارك وتعالى-: {إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ اللّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً * أُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا} [سورة النساء:١٥٠-١٥١]، وهذا يفسر به جميع المواضع التي يذكر الله -عز وجل- فيها كفر قوم بالمرسلين، وجاء ذلك في قوم نوح، مع أن قوم نوح لم يسبق إليهم رسول قبل نوح -عليه الصلاة والسلام-، {كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ} [سورة الشعراء:١٧٦-١٧٧]، إلى أن قال الله -عز وجل-: {فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ} [سورة الشعراء:١٨٩] وقال: {فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنّهُمَا لَبِإِمَامٍ مّبِينٍ}، {عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ} أظلتهم سحابة فكان عذابهم فيها، وقال: "**أصحاب الأيكة هم قوم شعيب**"، ونقل عن الضحاك وقتادة: الأيكة الشجر الملتف، أيكة تجمع على أيْك، وكان يكثر هذا الشجر ربما في ناحيتهم، {أَصْحَابُ الأيْكَةِ}، أو عرفت أرضهم بشجر ملتف فقيل لها ذلك، فبعضهم يقول: الأيكة هي الشجر الملتف، وبعضهم يقول: هذا اسم لقريتهم ولبلدتهم، يقال لها: الأيكة، وفي قراءة نافع وابن عامر وابن كثير "ليكة"، وعلى هذه القراءة تكون اسماً للمدينة، على ما ذكره بعض أهل

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

العلم في توجيه هذه القراءة، بفتح التاء، "كذب أصحاب ليكةَ المرسلين"، فبهذا الاعتبار تكون ممنوعة من الصرف، فهي بلا همز ولا تعريف، اسم غير منصرف، اسم للقرية أو المدينة التي كانوا فيها.

وقوله: {وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ} يعني قرية شعيب -عليه الصلاة والسلام- وقرى قوم لوط على الطريق، وقيل للطريق إمام؛ لأن المسافر يأتم به، فإذا تبعه وصل إلى مطلوبه، والطرق كانت موجودة منذ القدم، كانوا يسلكون مسالك معلومة، قد سلكها سالكون وآثار الناس فيها ظاهرة، فمن أراد الانتقال سلك هذه الطرق، فبها يأتمون ويصلون إلى مطلوبهم، وفي الآية الأخرى قال لهم شعيب -عليه الصلاة والسلام-: {وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ}[سورة هود:٨٩] إذا فسر هذا بالقرب المكاني أي: أنهم ليسوا ببعيد منهم في المحل والمنزل والدار.

{وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ * وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ * وَكَانُواْ يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً آمِنِينَ * فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ * فَمَآ أَغْنَىَ عَنْهُمْ مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ}[سورة الحجر:٨٠-٨٤].

أصحاب الحجر هم ثمود الذين كذبوا صالحاً نبيهم -عليه السلام-، ومن كذب برسول فقد كذب بجميع المرسلين، ولهذا أطلق عليهم تكذيب المرسلين، وذكر تعالى أنه أتاهم من الآيات ما يدلهم على صدق ما جاءهم به صالح، كالناقة التي أخرجها الله لهم بدعاء صالح من صخرة صماء، وكانت تسرح في بلادهم لها شرب ولهم شرب يوم معلوم، فلما عتوا وعقروها قال لهم: {تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ} [سورة هود:٦٥]، وقال تعالى: {وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى} [سورة فصلت:١٧] وذكر تعالى أنهم {كَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً آمِنِينَ} أي: من غير خوف ولا احتياج إليها بل أَشَراً وبطراً وعبثاً.

قال الحافظ ابن كثير: {وَكَانُواْ يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ}[سورة الحجر:٨٢] يعني: أن نحتهم البيوت في الجبال ليس بسبب الخوف، يعني قد تنحت البيوت في الجبال بسبب الخوف، كما ينحت الناس في هذا العصر في الأماكن التي يكون فيها الخوف، ينحتون ربما أنفاقاً وسراديب وأماكن يتحصنون بها في داخل الجبال إذا كانوا يخشون العدو كما هو الآن في الأسلحة الحديثة، فالحافظ ابن كثير رحمه الله يقول: إنهم ما فعلوا هذا بسبب الخوف، وإنما فعلوه من زيادة البطر والترف والتوسع لا لحاجة، ومن أهل العلم من يقول في تفسير{آمِنِينَ} آمنين من الموت، بمعنى أن نحت الجبال يتطلب عملاً كثيراً وجهداً عظيماً ما يفعله من كان يوقن بالموت، وأنه كراكب استظل تحت ظل شجرة، وبعضهم يقول: {آمِنِينَ} يعني من أن تسقط عليهم، وبعضهم يقول: آمنين من الخراب؛ لأنها تبقى كما هو مشاهد إلى اليوم، حتى النحوت التي عليها والزينة لا زالت باقية، وبعضهم يقول: آمنين من عذاب الله أن يقع عليهم، والله -تبارك وتعالى- قال ذلك وأطلقه {آمِنِينَ}، فهم يفعلون ذلك في غفلة عما يراد بهم، يتقلبون ويتمتعون في أرض الله -عز وجل-، وينحتون من الجبال بيوتاً وهم في مأمن، وعذاب الله -عز وجل- ينتظرهم كما قال لهم صالح -عليه الصلاة والسلام-: {أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ * فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ}[سورة الشعراء:١٤٦-١٤٨]، ثم قال لهم: {وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ} [سورة الشعراء:١٤٩].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كما هو المشاهد من صنيعهم في بيوتهم بوادي الحجر الذي مرّ به رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وهو ذاهب إلى تبوك، فقنّع رأسه وأسرع دابته، وقال لأصحابه: ((لا تدخلوا بيوت القوم المعذبين إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تبكوا فتباكوا خشية أن يصيبكم ما أصابهم))[1].

ومن هنا يؤخذ أنه ليس للإنسان أن يذهب إلى تلك الديار -ديار المعذبين- وأن يدخلها للفرجة، والآيات التي ورد فيها الأمر بالسير في الأرض والنظر في أحوال الأمم المكذبة وما حل بهم ليس لجميع الناس، {قُلْ سِيرُواْ فِي الأَرْضِ}[سورة الأنعام:١١] إنما لمن كان عنده شيء من التردد والشك، هؤلاء هم الذين خاطبهم القرآن بهذا، وأما بقية الناس فخاطبهم بقوله: {أَفِي اللّهِ شَكٌّ} [سورة إبراهيم:١٠]، وقال لهم: {اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ} [سورة الأعراف:٥٩] مباشرة، فلا يحتاج أن يذهب وينظر، هذا لمن كانت فطرته مستقيمة، أما من لا زال متردداً متحيراً فيقال له: اذهب فانظر، فإذا دخل تلك الديار للنظر والاعتبار بما حل بهم حمله ذلك على الإيمان، فيدخل في هذه الحالة متباكياً أو باكياً، أما أن يدخل وهو معلق الكاميرا في صدره ويضحك بملء فيه، ويأكل ويشرب فهذا حرام لا يجوز، ومن لم يحتجْ إلى هذا النظر ليس له أن يسافر إلى تلك الأرض، وما كان من هذا القبيل لمجرد الفرجة.

كذلك الذين يدخلون الأهرام، الأهرام لا يدرى ما هي وما أصلها؟

أكثر العلماء يقولون: كانت قبل الطوفان؛ لأنه لم يعرف لها خبر، ولو كانت بعد الطوفان لعرفها المؤرخون، والعلماء ذكروا أنهم فتحوا بعض الأهرام ودخلوا فيه ورأوا ما فيه من التوابيت، ورأوا ما فيه من الأشياء والجثث، وكل هذه الأشياء وصفوها وصفاً دقيقاً، ثم سدوه، فيقولون: لم يذكر لها أحد خبر، فيقولون: إذا كان كذلك فهذا يدل على أنها كانت قبل الطوفان فانقطع الخبر، -فالله أعلم-، لكن هذه الأماكن من نظر إليها في داخلها وكذا باعتبار أنها ليست لأناس من أهل الإيمان؛ لكفرهم، وهي أضرحة وأشياء من هذا القبيل، وفيها تماثيل، وأمور ليست محل معروف وطاعة وهدى يدخل فيه الإنسان وإنما محل منكرات، والمفروض أن تتلف هذه الأشياء جميعاً، يتلف ما فيها من تماثيل، وما فيها من جثث، فلا تبقى؛ لأن هذه مآثر وثنية، الواجب إتلافها، ويسأل بعض الناس فيقول: لماذا الصحابة لما فتحوا مصر ما أتلفوا مثلاً أبا الهول؟ هذه الأشياء كانت بعيدة عن المساكن، وكانت منطمرة يعني أبو الهول هذا كان مدفوناً في التراب، فلما جاءت الحملة الفرنسية بدءوا يبحثون عن الآثار؛ ليربطوا المصريين بالتراث الفرعوني، أو يبحثوا لهم عن شيء قبل الإسلام، فبدءوا ينبشون الآثار ويحفرون، فاستخرجوا ما يسمى بأبي الهول، ولا أدري من أين جاءوا بهذه التسمية، وقالوا للناس: هو أبو الهول، وهو تمثال حقه أن يكسر، وهو ضخم جداً لا يكسر بالمعاول، وكان مهجوراً لا أحد يأتيه، والأهرام لا يستطيعون هدمها، وحاول بعض الخلفاء أن يهدم بعضها، فهدم بعض الصغار، أكثر من محاولة جرت متأخرة في العهد العباسي، فبعض خلفاء بني العباس حاول وما استطاع، فهدم بعض الصغار، وكان الأهالي في بعض النواحي يأخذون من الحجارة ويضعونه في مزارعهم، وفي بيوتهم، وبقيت هذه

---

١ - رواه البخاري، كتاب الأنبياء، باب قول الله تعالى: {وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا}، برقم (٣٢٠٠)، بلفظ: ((لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا إلا أن تكونوا باكين أن يصيبكم ما أصابهم)).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الكبيرة الضخمة جداً لا يمكن هدمها، تحمل صور تماثيل، كبيرة جداً مثل الجبال، وكانت مهجورة إلى أن جاء الفرنسيون وأحيوا هذه المآثر، وقالوا للناس: هذه آثار فرعونية، وقالوا: قرأنا في الكتابات، مع أن السابقين من العلماء ذكروا الكتابات، وفسروا بعض هذه الكتابات، وما قالوا: إنها آثار فرعونية، والله أعلم.

وقوله: {فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ} أي: وقت الصباح من اليوم الرابع، {فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} أي: ما كانوا يستغلونه من زروعهم وثمارهم التي ضنُّوا بمائها عن الناقة حتى عقروها؛ لئلا تضيّق عليهم في المياه، فما دفعت عنهم تلك الأموال ولا نفعتهم لما جاء أمر ربك.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الحجر (٨)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ * إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ}[سورة الحجر:٨٥-٨٦].

يقول تعالى: {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ} أي: بالعدل، {لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا}[سورة النجم:٣١] **الآية، وقال تعالى: {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ}**[سورة ص:٢٧]**، وقال تعالى: {أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ * فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ}**[سورة المؤمنون:١١٥-١١٦]**، ثم أخبر نبيه بقيام الساعة وأنها كائنة لا محالة، ثم أمره بالصفح الجميل عن المشركين في أذاهم له وتكذيبهم ما جاءهم به، كقوله: {فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ}**[سورة الزخرف:٨٩]**، وقال مجاهد وقتادة وغيرهما: كان هذا قبل القتال، وهو كما قالا، فإن هذه مكية والقتال إنما شرع بعد الهجرة.**

وقوله: {إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ} تقرير للمعاد وأنه تعالى قادر على إقامة الساعة فإنه الخلاق الذي لا يعجزه خلق شيء، العليم بما تمزق من الأجساد وتفرق في سائر أقطار الأرض، كقوله: {أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ * إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ * فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}[سورة يونس:٨١-٨٣].

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: **{وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلاَّ بِالْحَقِّ}** ذكر الحافظ ابن كثير -رحمه الله- بعض نظائره من القرآن، كقوله: **{وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا}**، و**{أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ}**، **{وما خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلاَّ بِالْحَقِّ}** أي: خلقاً متلبساً بالحق، لم يخلقهم الله -عز وجل- عبثاً وإنما لحكمة وغاية عظيمة، وقوله -تبارك وتعالى-: **{فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ}**، نقل الحافظ ابن كثير -رحمه الله- عن بعض السلف أنها كانت قبل القتال، بمعنى أنها منسوخة، وهو الذي مال إليه الحافظ -رحمه الله-، وعليه عامة المفسرين: أن هذه الآية منسوخة نسختها آيات القتال كآية السيف، والأقرب -والله تعالى أعلم- أن الآيات التي وردت في الصفح والعفو والإعراض عن المشركين لم تنسخ، وأن النسخ لا يثبت بمجرد الاحتمال، وإنما ذلك بحسب حال الأمة، فإذا كانت الأمة في حال من الضعف فإن المتعين هو الصفح والإعراض والمصانعة بالقول وما أشبه ذلك مما أمر الله به في كتابه، تجد هذا في مواضع من القرآن، **{فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلامٌ}**، و**{فَاعْفُواْ وَاصْفَحُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ}** [سورة البقرة:١٠٩] وما أشبه هذا، فهذه الآيات غير منسوخة، والقول بأن آية

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

السيف نسخت مائة وأربعاً وعشرين آية لا دليل عليه، وإنما يختلف ذلك بحسب حال الأمة، فهناك رُخص وهناك عزائم، وقوله -تبارك وتعالى-: {إِنّ رَبّكَ هُوَ الْخَلاّقُ الْعَلِيمُ} جمع بين الخلق وبين العلم، والعلة في هذا ذكرها الحافظ ابن كثير -رحمه الله-، والله يقول: {قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ}[سورة يـــــس:٧٩]، و{أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ}[سورة الملك:١٤]، اللطيف الذي يعلم دقائق الأشياء، والخبير الذي يعلم بواطن الأمور.

{وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ * لاَ تَمُدّنّ عَيْنَيْكَ إِلَىَ مَا مَتّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مّنْهُمْ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ}[سورة الحجر:٨٧-٨٨] .

يقول تعالى لنبيه -صلى الله عليه وسلم-: كما آتيناك القرآن العظيم فلا تنظرنّ إلى الدنيا وزينتها، وما متعنا به أهلها من الزهرة الفانية لنفتنهم فيه فلا تغبطهم بما هم فيه، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات حزناً عليهم في تكذيبهم لك ومخالفتهم دينك، {وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} [سورة الشعراء:٢١٥] أي: ألن لهم جانبك، كقوله: {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ}[سورة التوبة:١٢٨]، وقد اختلف في السبع المثاني ما هي؟ فقال ابن مسعود وابن عمر وابن عباس -رضي الله تعالى عنهم- ومجاهد وسعيد بن جبير والضحاك وغيرهم: هي السبع الطوال. يعنون البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، ويونس، نص عليه ابن عباس وسعيد بن جبير. وقال سعيد: بيّن فيهن الفرائض والحدود والقصص والأحكام. وقال ابن عباس: بيّن الأمثال والخَبر والعِبر.

والقول الثاني: أنها الفاتحة، وهي سبع آيات. وروي ذلك عن عليٍّ وعمر وابن مسعود وابن عباس -رضي الله تعالى عنهم-، قال ابن عباس: والبسملة هي الآية السابعة، وقد خصكم الله بها، وبه قال إبراهيم النخعي، وعبد الله بن عبيد بن عمير، وابن أبي مليكة، وشهر بن حوشب، والحسن البصري، ومجاهد.

في قوله: {وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ}، السبع المثاني، من أهل العلم من يقول: هي السبع الطوال، والحافظ -رحمه الله- ذكر سورة يونس بدلاً من التوبة والأنفال، فالسابعة هي الأنفال والتوبة، وليست سورة يونس، وهذا هو المروي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-، فالشاهد: أن من أهل العلم من يقول: السبع المثاني هي السبع الطوال، قيل لها مثانٍ؛ لأنه تثنى فيها القصص والأحكام والأمثال والعقائد وما أشبه ذلك، تثنى يعني تكرر، {سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي}، والحافظ ابن كثير -رحمه الله- قال: "**وقال سعيد: بيّن فيها الفرائض والحدود والقصص والأحكام**"، هذا تعليل للتسمية، "**وقال ابن عباس: بيّن الأمثال والخَبر والعِبر**"، هذا تعليل لتسميتها بالمثاني، وقول سعيد وقول ابن عباس متحدٌ في التعليل، قيل لها المثاني؛ لأنه ثنى فيها الأمثال والخبر، والقول الثاني: أنها الفاتحة وهي سبع آيات، وهذا القول هو الذي لا ينبغي العدول عنه؛ لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- صرح به فلا التفات إلى قول غيره، وذلك في حديث أبي سعيد بن المعلى وفيه لما ذكر الفاتحة قال: ((وهي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته))[1]، وبهذا استدل

---

[1] - رواه البخاري كتاب التفسير، باب ما جاء في فاتحة الكتاب، برقم (٤٢٠٤).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الجمهور على أن سورة الفاتحة نزلت بمكة؛ لأن سورة الفاتحة من أهل العلم وهم قلة من قال: إنها نزلت بالمدينة، وبعضهم قال: إنها نزلت مرتين، وبعضهم قال: نزل نصفها في مكة، ونصفها في المدينة، وهذا في غاية البعد، فالشاهد أن سورة الفاتحة في مكة، ومن أقوى الأدلة على هذا آية الحِجر هذه، وسورة الحجر مكية، فهذه آية مكية يذكر الله -عز وجل- فيها سورة الفاتحة، وهذا من تفسير القرآن بالسنة، وقيل لها: مثانٍ؛ لأنها تثنى، وتكرر في كل ركعة، هذا هو المشهور، ومن أهل العلم من يقول: مثانٍ؛ لاشتمالها على الثناء على الله -عز وجل-، إذا قال العبد: الحمد لله رب العالمين، قال الله: حمدني عبدي، وإذا قال: الرحمن الرحيم، قال: أثنى علي عبدي، فإذا قال: مالك يوم الدين، قال: مجدني عبدي، ومن أهل العلم من يقول: قيل لها مثانٍ؛ لأن آياتها متعاقبة يتلو بعضها بعضاً، قال: {وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ}، فالقرآن العظيم قيل له: مثانٍ، فيكون من باب عطف العام على الخاص، وصف القرآن كله بأنه مثانٍ في قوله: {كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ}[سورة الزمر:٢٣]، فوصف بأنه مثانٍ؛ لأن الأخبار والقصص والعبر والأحكام تثنى، وابن جرير -رحمه الله- يقول: لأن آيات القرآن تأتي متتابعة آية بعد آية، فقيل له: مثانٍ بهذا الاعتبار، والله -تبارك وتعالى- وصف القرآن كله بأنه مثانٍ، والفاتحة يقال لها: السبع المثاني، ويوجد أيضاً الجزء من القرآن يقال له: مثانٍ، فالسلف كانوا يقسمون القرآن بغير التجزئة هذه التي نقسم بها، يقولون: السبع الطوال، وآخرها سورة التوبة، ثم بعد ذلك يأتي المئين وهي السور التي تزيد على المائة، ثم يأتي بعد ذلك المثاني وهي التي تأتي دون المائة، ثم يأتي بعد ذلك المفصل، هذه أربعة أجزاء، من السلف من كان يقسم بهذه الطريقة، وأكثرهم كان يقسم إلى سبعة أجزاء، يختمونه في سبع، هذا الذي عليه أكثر السلف، ومنهم من يقسم بهذه الطريقة -إلى أربعة أقسام-، وبعضهم يفسر السبع المثاني بموضوعات القرآن، العلماء تكلموا على موضوعات القرآن، ابن عاشور في مقدمة التفسير ذكر الموضوعات التي يدور عليها القرآن، وذكر هذا جماعة من أهل العلم، فبعض أهل العلم قال للسبع المثاني: هي الموضوعات التي يدور عليها القرآن، الأقسام الموجودة مثل الأمر والنهي والإنذار والبشارة والأمثال وذِكْر النعم وأخبار الأمم.

وقد أورد البخاري -رحمه الله- ههنا حديثين:

(أحدهما) عن أبي سعيد بن المعلى -رضي الله تعالى عنه- قال: مر بي النبي -صلى الله عليه وسلم- وأنا أصلي فدعاني فلم آته.

هذا الحديث يعتبر نصاً في الموضوع، وهو أن المثاني هي سورة الفاتحة، وهذا قول عامة أهل العلم، والسبع الطوال التي ذكرها بعض السلف أكثرها نزل في المدينة، وهذه الآية مكية.

عن أبي سعيد بن المعلى -رضي الله تعالى عنه- قال: مر بي النبي -صلى الله عليه وسلم- وأنا أصلي فدعاني فلم آته حتى صليت فأتيته، فقال: ((ما منعك أن تأتيني؟)) فقلت: كنت أصلي، فقال: ((ألم يقل الله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ}[سورة الأنفال:٢٤] ألا أعلمك أعظم سورة في القرآن

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قبل أن أخرج من المسجد)) فذهب النبي -صلى الله عليه وسلم- ليخرج فذكّرته فقال: ((﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [سورة الفاتحة:٢] هي السبع المثاني والقرآن الذي أوتيته))[٢].

(الثاني) عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((أم القرآن هي السبع المثاني والقرآن العظيم))[٣]، فهذا نص في أن الفاتحة السبع المثاني والقرآن العظيم، ولكن لا ينافي وصف غيرها من السبع الطوال بذلك، لما فيها من هذه الصفة، كما لا ينافي وصف القرآن بكماله بذلك أيضاً، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ﴾ [سورة الزمر:٢٣] فهو مثانٍ من وجه ومتشابه من وجه، وهو القرآن العظيم أيضاً.

متشابه يعني يشبه بعضه بعضاً في الحسن والفصاحة والبيان، ويصدق بعضه بعضاً، فالله وصف القرآن كله بأنه متشابه بهذا الاعتبار، ووصفه بأنه محكم، ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ﴾ [سورة هود:١] أي: يصدق بعضه بعضاً، ووصف بعضه بأنه محكم، وبعضه بأنه متشابه والمقصود غير الوصف العام، فالمراد بقوله: ﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ [سورة آل عمران:٧]، هو إحكام خاص وتشابه خاص، فالمحكم هو ما استقل بنفسه في بيان المراد منه ولم يحتج إلى غيره ليفهم معناه، والمتشابه: ما احتاج إلى إرجاعه إلى غيره ليتبيّن المراد منه.

وقوله: ﴿لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ﴾ [سورة الحجر:٨٨] أي: استغن بما آتاك الله من القرآن العظيم عما هم فيه من المتاع والزهرة الفانية.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾، وقال: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾[سورة طـــه:١٣١]، وقال: ﴿لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ يعني: استشراف النفس والتطلع إلى ما في أيديهم من الحطام والمتاع، وما أشبه ذلك، فما عند الله خير وأبقى، فذلك فيء زائل، وحطام لا بقاء له، ﴿إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ﴾، أي: أصنافاً منهم مُتعوا بأنواع المتع في هذه الحياة الدنيا.

قال العوفي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: ﴿لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾، قال: نهى الرجل أن يتمنى ما لصاحبه.

وقال مجاهد: ﴿إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ﴾ هم الأغنياء.

وليس المقصود ﴿إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ﴾: هم الأغنياء مطلقاً، وإنما المقصود الكفار، ﴿زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ ، فقوله: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ يبين أيضاً ذلك، ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: على عدم إسلامهم، فإن الله -عز وجل- لم يُرد ذلك.

---

[٢] - رواه البخاري كتاب التفسير، باب ما جاء في فاتحة الكتاب، برقم (٤٢٠٤).

[٣] - رواه البخاري، كتاب التفسير، باب ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾، برقم (٤٤٢٧).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الحجر (٩)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {وَقُلْ إِنِّيَ أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ * كَمَآ أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ * الَّذِينَ جَعَلُواْ الْقُرْآنَ عِضِينَ * فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ}[سورة الحجر:٨٩-٩٣].

يأمر تعالى نبيه -صلى الله عليه وسلم- أن يقول للناس: {إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ} البيّن النذارة، نذير للناس من عذاب أليم أن يحل بهم على تكذيبه، كما حل بمن تقدمهم من الأمم المكذبة لرسلها، وما أنزل الله عليهم من العذاب والانتقام، وفي الصحيحين عن أبي موسى -رضي الله تعالى عنه-، عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إنما مثلي ومثل ما بعثني الله به كمثل رجل أتى قومه فقال: يا قوم إني رأيت الجيش بعيني، وإني أنا النذير العريان فالنجاء النجاء، فأطاعه طائفة من قومه فأدلجوا وانطلقوا على مهلهم فنجوا، وكذبه طائفة منهم فأصبحوا مكانهم، فصبّحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم، فذلك مثل من أطاعني واتبع ما جئت به ومثل من عصاني وكذب ما جئت به من الحق))[1].

وقوله: {الْمُقْتَسِمِينَ} أي: المتحالفين، أي تحالفوا على مخالفة الأنبياء وتكذيبهم وأذاهم، كقوله تعالى إخباراً عن قوم صالح: إنهم {قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ}[سورة النمل:٤٩]الآية، أي نقتلهم ليلاً، قال مجاهد: تقاسموا وتحالفوا، {وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ}[سورة النحل:٣٨]، {أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ} الآية {أَهَؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ}، فكأنهم كانوا لا يكذبون بشيء من الدنيا إلا أقسموا عليه، فسُموا مقتسمين.

وقوله: {الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ} أي: جزّءوا كتبهم المنزلة عليهم فآمنوا ببعض وكفروا ببعض.

روى البخاري عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ} قال: هم أهل الكتاب جزءوه أجزاء فآمنوا ببعضه وكفروا ببعضه.

وقيل: المراد بالمقتسمين قريش، وبالقرآن هو هذا القرآن، ومعنى جعْله عضين هو ما قاله عطاء: قال بعضهم: ساحر. وقالوا: مجنون، وقالوا: كاهن، فذلك العضين، وكذا روي عن الضحاك وغيره.

وروى محمد بن إسحاق عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: أن الوليد بن المغيرة اجتمع إليه نفر من قريش، وكان ذا شرف فيهم، وقد حضر الموسمُ فقال لهم: يا معشر قريش، إنه قد حضر هذا الموسم، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا، فأجمعوا فيه رأياً واحداً، ولا تختلفوا

---

١ - رواه البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب الاقتداء بسنن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، برقم (٦٨٥٤)، ومسلم، كتاب الفضائل، باب شفقته -صلى الله عليه وسلم- على أمته ومبالغته في تحذيرهم مما يضرهم، برقم (٢٢٨٣).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فيكذب بعضكم بعضاً، ويرد قولكم بعضه بعضاً، فقالوا: وأنت يا أبا عبد شمس فقل، وأقم لنا رأياً نقول به، قال: بل أنتم قولوا لأسمع، قالوا: نقول كاهن، قال: ما هو بكاهن، قالوا: فنقول مجنون، قال: ما هو بمجنون، قالوا: فنقول شاعر، قال: ما هو بشاعر، قالوا: فنقول ساحر، قال: ما هو بساحر، قالوا: فماذا نقول؟ قال: والله إن لقوله لحلاوة، فما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عُرف أنه باطل، وإن أقرب القول أن تقولوا: هو ساحر، فتفرقوا عنه بذلك، وأنزل الله فيهم {الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ} أصنافاً، {فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ} أولئك النفر الذين قالوا ذلك لرسول لله -صلى الله عليه وسلم-.

وقال أبو جعفر عن الربيع عن أبي العالية في قوله: {فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ} قال: يسأل العباد كلهم عن خلتين يوم القيامة: عما كانوا يعبدون، وماذا أجابوا المرسلين.

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- في قوله: {فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ} ثم قال: {فَيَوْمَئِذٍ لا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلا جَانٌّ} [سورة الرحمن:٣٩] قال: لا يسألهم هل عملتم كذا؟ لأنه أعلم بذلك منهم، ولكن يقول: لم عملتم كذا وكذا؟.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {وَقُلْ إِنِّيَ أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ * كَمَآ أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ}، قال بعض أهل العلم: إن الكاف زائدة -أي إعراباً-، يعني {وَقُلْ إِنِّيَ أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ} نذير يعني منذر، أنذركم ما أنزلنا على المقتسمين من العذاب، هكذا قدره بعض أهل العلم، وبعضهم قال: فيه أن مفعول "أنزلنا" مقدر، يعني {وَقُلْ إِنِّيَ أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ * كَمَآ أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ} عذاباً، فيخوفهم ويتوعدهم، فيكون المعنى: نذير لكم من عذاب كعذاب المقتسمين، {وَقُلْ إِنِّيَ أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ * كَمَآ أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ} عذاباً، فأنا نذير لكم مثل عذاب المقتسمين الذي أنزلناه عليهم، فيكون كقوله: {أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ}[سورة فصلت:١٣] يعني: يخوفهم من أن يُنزل بهم عذاباً كالعذاب الذي نزّله على المقتسمين، سواء كان هؤلاء -أعني المقتسمين- هم من مضى، ممن أهلكهم الله -عز وجل-، أو ممن كانوا في قريش وأهلكهم الله -تبارك وتعالى-، والآية تحتمل المعنيين، {كَمَآ أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ}، وقوله: {الْمُقْتَسِمِينَ}: {الَّذِينَ جَعَلُواْ الْقُرْآنَ عِضِينَ}، ففسره بهذا، ومن أهل العلم من يقول: إن المقصود بالمقتسمين هو ما ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- في القول الأول، يعني من القسَم وهو الحلف، يحلفون ويقسمون على عدم البعث، وعلى تكذيب الأنبياء، وعلى صحة إشراكهم وكفرهم بالله -تبارك وتعالى- وما شابه ذلك {قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ}[سورة النمل:٤٩] وهذا كله داخل في هذا المعنى، على هذا القول، سواء كانوا من الأمم السابقة أو كانوا من قريش، كل هؤلاء الذين يحلفون على الكفر وعلى أذى الأنبياء -على هذا المعنى- يدخلون فيه، وذكر الحافظ ابن كثير -رحمه الله- في الكلام على قوله: {الَّذِينَ جَعَلُواْ الْقُرْآنَ عِضِينَ}، قال: "**وقيل المراد بالمقتسمين قريش، وبالقرآن هذا القرآن**"، وبعضهم لا يفسره بالقسم وإنما الذين اقتسموا الشيء يعني بعّضوه، وجزّءوه وجعلوه أقساماً، وهذا هو الأقرب إلى ما فسره الله -تبارك وتعالى- به، في قوله: {الَّذِينَ جَعَلُواْ الْقُرْآنَ عِضِينَ}، لكن مَن هؤلاء المقتسمون الذين جعلوا القرآن عضين؟ وهل المقصود بالقرآن هو هذا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الذي بين أيدينا أو الكتب السابقة؟ فمن قال بأنها الكتب السابقة، قالوا: جزءوا كتبهم فآمنوا ببعض وكفروا ببعض، فجعلوا كتاب الله -عز وجل- مجزّءاً، يقبلون بعضه ويردون ما يخالف أهواءهم، وبعضهم يقول: المراد بالقرآن هو هذا القرآن، والذين جعلوه عضين هم أهل الكتاب، كانوا يستهزئون، فبعضهم يقول: هذه السورة لي وهذه السورة لك، أو أنهم يؤمنون ببعضه، ويكفرون ببعضه، يؤمنون بما يوافق أهواءهم، ويكفرون بما يخالف أهواءهم، وبعضهم يقول: هؤلاء الذين جعلوا القرآن عضين هم قريش؛ لأنهم تفرقت فيه أقوالهم، فمنهم من قال: إنه سحر، ومنهم من قال: إنه كهانة، ومنهم من قال: إنه شِعر، فجعلوه عضين بهذا الاعتبار، والعضين بعضهم يقول: إن أصله جمع عِضَة، وتقول: أعضى الشاة بمعنى جعلها أجزاءً، وهذا موافق لما قبله من قوله: {الْمُقْتَسِمِينَ}، يعني جعلوا القرآن أجزاءً يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض، أو أنهم يقولون: هذا سحر، وبعضهم يقول: شعر، وبعضهم يقول: كهانة ونحو ذلك، وقيل: إن العِضَة هي السحر، فمن أسمائه: العِضَة، وقد جاء ذلك أيضاً في النميمة؛ لأنها تفعل فعل السحر، {عِضِينَ} أي: سحر، وبعضهم يقول بأن العِضة هي السحر، والعَضة بالفتح يعني البهت، وابن جرير -رحمه الله- يقول: لا مانع من حمل الآية على هذه المعاني جميعاً، وأما المقتسمين فالقول بأنها من الحلف، {كَمَآ أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ} مع أنها تحتمله إلا أن السياق قد لا يدل عليه؛ لأن الله -عز وجل- قال: {الَّذِينَ جَعَلُواْ الْقُرْآنَ عِضِينَ}، والأشهر أن يقال في الحالف: "كما أنزلنا على المُقْسِمين" وهنا قال: {الْمُقْتَسِمِينَ}، فالحاصل أن الكفار قالوا عن القرآن هذه الأقاويل ورموه بما هو معروف من أباطيلهم وكذبهم، -والله تعالى أعلم-، وقوله -تبارك وتعالى-: {كَمَآ أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ}، بعضهم يقول: إنه متعلق بقوله: {وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ} أي: أنزلنا عليك مثل ما أنزلنا على أهل الكتاب وهم المقتسمون الذين آمنوا ببعض كتابهم وكفروا ببعض، {كَمَآ أَنْزَلْنَا} أنزلنا عليك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم كما أنزلنا على المقتسمين كتابهم، والأثر الذي ذكره الحافظ ابن كثير **عن محمد بن إسحاق عن ابن عباس: أن الوليد بن المغيرة اجتمع إليه نفر من قريش،** ..إلى آخره، لا يصح من جهة الإسناد.

{فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ * إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ * الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللّهِ إِلَهاً آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ * وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِّنَ السَّاجِدِينَ * وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىَ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ} [سورة الحجر:٩٤-٩٩].

يقول تعالى آمراً رسوله -صلى الله عليه وسلم- بإبلاغ ما بعثه به وبإنفاذه والصدع به، وهو مواجهة المشركين به، كما قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- في قوله: {فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ} أي: أمْضِه، وفي رواية {افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ} [سورة الصافات:١٠٢]، وقال مجاهد: هو الجهر بالقرآن في الصلاة، وقال أبوعبيدة عن عبد الله بن مسعود -رضي الله تعالى عنهما-: ما زال النبي -صلى الله عليه وسلم- مستخفياً حتى نزلت {فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ}، فخرج هو وأصحابه.

الصدع معناه الأمر بإعلان الدعوة وإظهارها وإشهارها بعد أن كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يدعو سراً، وبعض أهل العلم يقول: إنه مأخوذ من الصديع وهو الصبح، فإذا صدع، فإنه يكون قد أبان وأظهر دعوته، كما ينصدع الصبح ويبين من ظلام الليل، وبعضهم يفسر الصدع بالشق، تقول: تصدع الجدار مثلاً، يعني

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تشقق، {فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ} يعني: أن النبي -صلى الله عليه وسلم- أمر بالصدع، أي بما يكون به تفريق كلمتهم؛ لأنه جاء في أسماء القرآن بأنه الفرقان، فرق بين الحق والباطل، فينقسم الناس إلى فريقين: إلى مؤمنين وكفار، {فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ}، وهذا لا يخلو من تكلف -والله تعالى أعلم-، {فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ} أي: أعلن وأظهر دعوتك.

وقوله: {وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ * إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ} أي: بلّغ ما أنزل إليك من ربك، ولا تلتفت إلى المشركين الذين يريدون أن يصدوك عن آيات الله، {وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ} [سورة القلم:٩]، ولا تخفهم فإن الله كافيك إياهم وحافظك منهم، كقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ}[سورة المائدة:٦٧].

قوله: {وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ * إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ} أي: لا تخفهم فإن الله كافيك وحافظك منهم، وقيل بأن قوله: {وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ} أي: أعرض عن معاقبتهم وإيصال الأذى إليهم، كقوله تعالى: {اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ}[سورة الأنعام:١٠٦]، وقوله: {فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ} [سورة الزخرف:٨٩]، {فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّى عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا}[سورة النجم:٢٩]، وما شابه ذلك من الأمر بالإعراض فإن الكثيرين من أهل العلم يقولون: إن هذه الآية منسوخة، ويقولون: إن آية السيف نسختها، وهذا الذي اختاره ابن جرير -رحمه الله- وجماعة، ومن المعاصرين الشيخ محمد الأمين الشنقيطي، والأقرب -والله أعلم- أن ذلك ليس بمنسوخ، وأن هذه أطوار وأحوال تمر بها الدعوة، ففي وقت الاستضعاف: الإعراض والصفح والعفو، {وَقُلْ سَلَامٌ}، وفي وقت التمكن والقوة تكون المعاقبة.

قال محمد بن إسحاق: كان عظماء المستهزئين خمسة نفر، وكانوا ذوي أسنان وشرف في قومهم من بني أسد بن عبد العزى بن قصي: الأسود بن المطلب أبو زمعة، كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فيما بلغني قد دعا عليه لما كان يبلغه من أذاه واستهزائه، فقال: ((اللهم أعم بصره، وأثكله ولده))[٢]، ومن بني زهرة: الأسود بن عبد يغوث بن وهب بن عبد مناف بن زهرة، ومن بني مخزوم: الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، ومن بني سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤي: العاص بن وائل بن هشام بن سعيد بن سعد، ومن خزاعة: الحارث بن الطلاطلة بن عمرو بن الحارث بن عبد عمرو بن ملكان. فلما تمادوا في الشر وأكثروا برسول الله -صلى الله عليه وسلم- الاستهزاء أنزل الله تعالى: {فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ * إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ * الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ}.

رواه محمد بن إسحاق من غير إسناد، فلا يصح، والروايات الواردة في هذا المعنى {إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ} أنهم خمسة، وجاءت تسميتهم على اختلاف في بعض الروايات، والعقوبات التي حلت بهم كثيرة منها ما هو موضوع، ومنها ما يمكن أن يقال: إن أقل أحواله أنه حسن لغيره، ومجموع الروايات يدل على أن لذلك أصلاً، فـ {إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ} نزلت في أشخاص بأعيانهم، كانوا معروفين بشدة عتوهم واستهزائهم

---

٢ - انظر: معالم التنزيل في تفسير القرآن (٣٩٥/٤)، والسيرة النبوية، لابن هشام (٢٥٦/٢).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فأنزل الله -عز وجل- بهم عقوبات متنوعة، فأهلكهم الله -تبارك وتعالى-، هذا الذي يؤخذ من مجموع الروايات، والروايات المذكورة تشبه هذه الرواية على تفاوت في ذكر بعض التفاصيل، والله تعالى أعلم.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الحجر(١٠)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله- في تتمة كلامه على قوله -جل وعلا-: {إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ}[سورة الحجر:٩٥] الآيات.

قال محمد بن إسحاق: كان عظماء المستهزئين خمسة نفر، وكانوا ذوي أسنان وشرف في قومهم، من بني أسد بن عبد العزى بن قصي: الأسود بن المطلب أبو زمعة، كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فيما بلغني قد دعا عليه لما كان يبلغه من أذاه واستهزائه، فقال: ((اللهم أعم بصره، وأثكله ولده))[1]، ومن بني زهرة: الأسود بن عبد يغوث بن وهب بن عبد مناف بن زهرة، ومن بني مخزوم: الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، ومن بني سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤي: العاص بن وائل بن هشام بن سعيد بن سهم، ومن خزاعة: الحارث بن الطُلاطلة بن عمرو بن الحارث بن عبد عمرو بن ملكان.

معنى الطلاطلة في اللغة: الداهية.

ضبط بعضهم مَلْكان، وبعضهم مَلَكان، وبعضهم مِلْكان بالكسر والإسكان.

فلما تمادوا في الشر وأكثروا برسول الله -صلى الله عليه وسلم- الاستهزاء أنزل الله تعالى: {فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ * إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ * الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ}[سورة الحجر:٩٤-٩٦].

وقال ابن إسحاق: فحدثني يزيد بن رومان عن عروة بن الزبير أو غيره من العلماء: أن جبريل أتى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وهو يطوف بالبيت، فقام وقام رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إلى جنبه، فمر به الأسود بن المطلب فرمى في وجهه بورقة خضراء فعمي، ومر به الأسود بن عبد يغوث فأشار إلى بطنه، فاستسقى بطنه فمات منه حَبَناً، ومر به الوليد بن المغيرة فأشار إلى أثر جرحٍ بأسفل كعب رجله، وكان أصابه قبل ذلك بسنتين، وهو يجر إزاره، وذلك أنه مر برجل من خزاعة يريش نبلاً له.

الحَبَن انتفاخ البطن، فمات منه حَبَناً.

يريش نبلاً له: يعني يلصق فيه الريش، والسهم يوضع فيه الريش من أجل أن ينطلق بطريقة لا ميل فيها.

فتعلق سهم من نبله بإزاره فخدش رجله ذلك الخدش، وليس بشيء، فانتقض به فقتله، ومر به العاص بن وائل فأشار إلى أخمص قدمه فخرج على حمار له يريد الطائف، فربض على شِبْرِقة فدخلت في أخمص قدمه شوكة فقتلته، ومر به الحارث بن الطلاطلة فأشار إلى رأسه فامتخض قيحاً فقتله.

---

١ - وذكره الحافظ –أيضا- في البداية والنهاية (١٠٥/٣)، وابن هشام في السيرة (٢٥٦/٢).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فانتقض: يعني جراحه انتقضت، أي تجددت بعدما برئت.

فامتخض بالضاد، فامتخض قيحاً، يعني تحرك القيح في رأسه وانتشر فمات.

وقوله: {الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ} تهديد شديد ووعيد أكيد لمن جعل مع الله معبوداً آخر.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فكما أن الأثر السابق لا يصح، فكذلك هذا لا يصح، "**وعن عروة بن الزبير أو غيره من العلماء: أن جبريل.. إلى آخره**"، وجاء أيضاً بنحوه عن ابن عباس -رضي الله عنهما- عند أبي نعيم ولكن بإسناد حكم عليه بالوضع، ولا يوجد من الآثار التي تشبه هذا ما هو أحسن حالاً وأقوى سنداً، ومجموع هذه الروايات يدل على أن لذلك أصلاً، والله أعلم.

وقوله: {وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ} [سورة الحجر:٩٧-٩٨] **أي: وإنا لنعلم يا محمد أنك يحصل لك من أذاهم لك ضيق صدر وانقباض فلا يهيدنّك ذلك ولا يثنينك عن إبلاغك رسالة الله، وتوكل عليه فإنه كافيك وناصرك عليهم، فاشتغل بذكر الله وتحميده وتسبيحه وعبادته التي هي الصلاة، ولهذا قال: {فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ}.**

قوله تعالى: {وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ}، كقوله: {قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ} [سورة الأنعام:٣٣] وكقوله: {فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا} [سورة الكهف:٦]، وقوله: {فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَآئِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاء مَعَهُ مَلَكٌ}[سورة هود:١٢] الآية، فهذه الآيات ونظائرها تدل على هذا المعنى، {وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ}، ثم أرشده إلى ما يفعله عند ذلك فقال: {فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ}، كما قال الله -عز وجل-: {إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا} [سورة المزمل:٥] ثم قال له: {إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا * إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا} [سورة المزمل:٦-٧]، الشاهد أنه أرشده إلى قيام الليل، وهكذا في قوله -تبارك وتعالى-: {وَاسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ} [سورة البقرة:٤٥] يستعان بها على هذا وعلى كل ما يصيب الإنسان من الشدائد، وحتى على القيام والنهوض بالتكاليف الشرعية.

كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن نعيم بن همّار -رضي الله تعالى عنه- أنه سمع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((قال الله تعالى: يا ابن آدم لا تعجز عن أربع ركعات من أول النهار أكْفك آخره))[٢].

وفي بعض الألفاظ: ((اكفني أربع ركعات))[٣].

---

٢ - رواه الإمام أحمد في المسند برقم (٢٢٤٦٩)، وقال محققوه: حديث صحيح، وهذا إسناد رجاله ثقات، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٤٣٤٢).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقوله: {وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ}[سورة الحجر:٩٩] قال البخاري: قال سالم: الموت، وسالم هذا هو سالم بن عبد الله بن عمر، كما روى ابن جرير عن سالم بن عبد الله {وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ} قال: الموت، وفي الصحيح عن أم العلاء -امرأة من الأنصار -رضي الله تعالى عنها- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لما دخل على عثمان بن مظعون وقد مات، قالت أم العلاء: رحمة الله عليك أبا السائب، فشهادتي عليك لقد أكرمك الله، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((وما يدريك أن الله أكرمه؟)) فقلت: بأبي وأمي يا رسول الله، فمن؟ فقال: ((أما هو فقد جاءه اليقين، وإني لأرجو له الخير))[٤]، ويستدل بهذه الآية الكريمة وهي قوله: {وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ} على أن العبادة كالصلاة ونحوها واجبة على الإنسان ما دام عقله ثابتاً، فيصلي بحسب حاله.

لأن ذلك قيد إلى حد الوفاة، {وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ}، وسواء كان ذلك في الصلاة أو في غيرها، ويبين ذلك حديث النبي -صلى الله عليه وسلم- أن القلم رفع عن ثلاثة[٥]، فطالما أن الإنسان وجد فيه العقل فإنه مطالب بالعبادة إلى أن يأتيه الموت، فالعبادة لا تسقط عن المكلف ما دام يعقل، لا تسقط سقوطاً كلياً ولا تصير إلى بدل، بخلاف بعض العبادات التي تسقط بالعجز كالحج، ومنها ما يسقط إلى بدل مثل الوضوء إلى التيمم، أما تفسير بعض الصوفية بأن اليقين هو أن يصل الإنسان -كما يزعمون- إلى مرحلة الكشف، ثم تسقط عنه بعد ذلك التكاليف، فهذه زندقة وإلحاد.

ويقولون في قوله تعالى مثلاً: {قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ * وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ * وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ * حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ}[سورة المدثر:٤٣-٤٧] أتاهم اليقين يعني الكشف، هؤلاء الكفار في النار يقولون: {حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ}! ومعنى اليقين: الموت، والقرآن يفسر بالقرآن، وهذا الحديث في عثمان بن مظعون -رضي الله عنه- قال: ((فقد جاءه اليقين))[٦] يعني: الموت.

كما ثبت في صحيح البخاري عن عمران بن حصين -رضي الله تعالى عنهما- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((صلِّ قائماً، فإن لم تستطع فقاعداً، فإن لم تستطع فعلى جنْب))[٧]، ويستدل بها على تخطئة من ذهب من الملاحدة إلى أن المراد باليقين المعرفة، فمتى وصل أحدهم إلى المعرفة سقط عنه التكليف عندهم، وهذا كفر وضلال وجهل، فإن الأنبياء -عليهم السلام- كانوا هم وأصحابهم أعلم الناس بالله وأعرفهم بحقوقه وصفاته، وما يستحق من التعظيم، وكانوا مع هذا أعبد الناس وأكثر الناس عبادة

---

٣ - رواه الإمام أحمد في المسند برقم (١٧٣٩٠)، وقال محققوه: إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الصحيح غير نعيم بن همار، فقد روى له أبو داود والنسائي، وهو في قول الجمهور صحابي، وعده العجلي تابعياً، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٢٧٩٤).

٤ - رواه البخاري، كتاب الشهادات، باب القرعة في المشكلات، برقم (٢٥٤١).

٥ - رواه أبو داود، كتاب الحدود، باب في المجنون يسرق أو يصيب حداً، برقم (٤٣٩٨)، وابن ماجه، كتاب الطلاق، باب طلاق المعتوه والصغير والنائم، برقم (٢٠٤١)، والنسائي، كتاب الطلاق، باب من لا يقع طلاقه من الأزواج، برقم (٣٤٣٢)، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٣٥١٢).

٦ - رواه البخاري، كتاب الجنائز، باب الدخول على الميت بعد الموت إذا أدرج في كفنه، برقم (١١٨٦).

٧ - رواه البخاري، أبواب تقصير الصلاة، باب إذا لم يطق قاعداً صلى على جنب، برقم (١٠٦٦).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ومواظبة على فعل الخيرات إلى حين الوفاة، وإنما المراد باليقين ههنا الموت، كما قدمناه، ولله الحمد والمنة، والحمد لله على الهداية، وعليه الاستعانة والتوكل، وهو المسئول أن يتوفانا على أكمل الأحوال وأحسنها، فإنه جواد كريم.

آخر تفسير سورة الحجر، والحمد لله رب العالمين.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com